الزّعيم

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

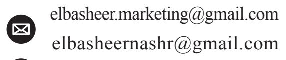
اسم الكتاب: الزّعيـــم
التأليف: د. أحمد السَّعيد مراد
المراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 200 صفحة
عدد الملازم: 12.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 1724 /2020
الترقيم الدولي: 978-977-278-810-1



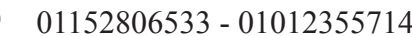




elbasheer.marketing@gmail.com



elbasheernashr@gmail.com



01152806533 - 01012355714

الزّعيـم

روايـة

د. أحمد السَّعيد مراد



الإهْداء

إلى الزعيم المنتظر ..

إذا وجدت نفسك بين سطور هذه الرواية؛

قد يكون أنت بالفعل !

المسجدُ الكبير في حيّ السيدة عائشة بمصابيحه القليلة، يتألق وسط أعمدةِ الإنارة المتعطّلة خلف ظلمات ليل الشتاء، وبالداخل كانت الإضاءةُ الخافتة المألوفة في صلاة الفجر، وكالعادة لم يكتمل الصفّ الأوّل، الذي تخرجُ من أفواه الجالسين فيه بالتشهّد الأخير همهماتٌ مكتومة صمتت أخيرًا، وبعد التسليم اتّباعًا للإمام بدأت الوفود في الخروج، وعامر يجرّ قدميه بصعوبة، ومازال خدرُ النّوم يسري في كلّ جوانبه، كم يتمنّى أن يستكمل نومته ذاتَ يوم ليتشبع من لذتها حتّى الثّمالة، ولكنّ أباه لا يترك له هذه الفرصة التي يتوق إليها دومًا، فرغم رأسه المثقلة، والتي تكاد تقعُ منه بأرجحتها البطيئة أثناء سيره، إلّا أنّ أباه أخذ يردّد أدعيته وأذكاره الصّباحية وينغزه بذراعه ليستكمل عامر ترديدَها معه حين توقفه.

وصلَ البيت وعيناه ترنو إلى غرفته باشتياق، ولكن توجّب عليه استكمال الجدول اليوميّ لأبيه من قراءةٍ لبعض من آيات الذكر الحكيم، ما إن أتمّ الوالد القراءة وقامَ إلى غرفته، حتّى اندفع عامر إلى سريره الذي يراه كواحةٍ غنّاء وجدها بعد طول مسيرٍ في صحراء قاحلة كاد يهلك فيها عطشًا، تدثّر بأغطيته مخفيًا كامل جسده، ووجّه أسفلها مترقّبًا للدفء الجميل بها، وقبل حتّى أن يتفكّر في أي أمر، كان النّعاس قد اغتال ما بقيَ من وعيه، فذهب مسرعًا الى ما كان

يصبو إليه، ولكنْ شعر كأنما فور إغلاق أبواب عينيه حتّى تمّ فتحهما مجدّدًا وعنوة، وذلك باهتزازِ جسده وصوت أبيه مناديًا عليه ليدعوه إلى صلاة الضّحى، نظر نحو أبيه بسخط، وقال بحنق:

– الرّحمة قليلًا يا حاج، لو كان لديك عبدٌ حبشيّ ما كنت لتتعامل معه هكذا!

تنهّد أبوه وقال:

– غدًا عندما أموت وتصارع الشّيطان وملذّات الدنيا وحدك، ستعلم ما هي حقيقة تلك العبودية.

دفع عامر غطاءه، وقام وهو يتنهّد قائلًا:

– حفظك الله لي أبي الحبيب، تعلمُ نقطة ضعفي وتطعنني بها لأني أحبّك.

ضمّ الأب رأسَ ولده إليه في احتضان دافئ وقال:

– أنت ولدي الوحيد يا عامر، سندي في الدنيا، وذخري في الآخرة، هيّا كي لا تتأخر على جامعتك.

بعد قليل، كان عامر قد انتهى من صلاته، وما اعتاد عليه صباحًا، ووقف أمام مرآته يشذّب شعر رأسه الناعم، ويمسح فوق لحيته الخفيفة والأنيقة، ونظر إلى ملامحه الوسيمة برضا تام، وأخيرا انطلق إلى دراسته بكلية الألسن قسم اللغة الأسبانية.

***

خرج عامر من مسجد الكلية ولسانُه يهمس بخفوت ببعض الأدعية التي اعتاد عليها حين ذاك، وحملَ حقيبته الأنيقة على ظهره، وهمّ أن ينطلق، ولكن اقتحمت أذنيه ضحكةٌ أنثوية عالية في آخر الرواق، تجهّم وهو يرى ذلك لا يتناسب مع مكانٍ به مسجد، ونظر نحو التجمّع الشبابي الذي يضمّ تلك الفتاة عديمة الحياء بالنسبة له، وقرر ألّا يترك الأمر بسلبية، فاندفع نحوهم بتجهّم، وعندما وصل إليهم رسم على وجهه ابتسامة مفتعلَة وقال:

– كيف الحال يا شباب، صوتكم عال جدًّا لقد أخرجني من صلاتي.

قالت الفتاة بدلالٍ وهي تفحص ملامحه الرجولية الوسيمة:

– وهل دعوتَ لنا يا شيخ؟

نال منه صوتُها رغماً عنه، وكان يملك أن يترك تعليقًا يثير الضحكات بأكثر ممّا يفعل الواقفون معها، ولكن تمالك نفسه قدر استطاعته وتجاهل سؤالها قائلًا:

– ليتكم تدخلون للصّلاة وتدعون أنتم لي.

ولم ينتظر تعليقًا، وتركهم منصرفًا، والهمس والضحكات المكتومة تلاحقه، وبينما يجدّ السير عبر حديقة الكلية إذا بتجمّع آخر يمسك كلّ منهم بتلابيب جوّاله أو حاسوبه اللوحي وهُم منعزلون عن العالم بشكل تامّ، ومنغمسون فيه بلعبتهم الجماعية الجديدة التي تربط كلّ منهم بالآخر في فريقٍ قتالي، وبينما إحداهنّ تهتف قائلة:

– اقتله عليه لعنة الله.

ويردّ عليها زميل قائلًا:

- قمْ بالتّفجير بسرعة.

أسرع عامر خطواته قبل أن يستمع أحدهم لتلك التعليقات ويراه بلحيته ويتمّ الإبلاغ عن وجود خليّة إرهابية تقوم بالاستعداد لإحدى عملياتها!

وبينما هو بموقف الحافلات ينتظر تلك التي ستقلّه إلى بيته، إذا بزميله السّاخر جاسر يقول له:

- لو سمحت يا شيخ عامر، أعلم أنّك عبقري في استخدام الإنترنت، هلّا ساعدتني؟

ابتسم عامر قائلًا:

- سأفعل إن كنت قد صلّيت العصر.

- أعدك بأنْ أصلّيه فور عودتي للمنزل.

- اتّفقنا، ما مشكلتك؟

مدّ جاسر يده إليه بجواله الذكي وقال:

- هذا تطبيقٌ يسمح لك بالبحث عن راغبي السّفر حول العالم، وإذا وجدت مَن يتوافق معك في زيارة بلدٍ معين، يتمّ الاتفاق بينكما من يتحمل تكاليف السفر أو كيف سيتمّ اقتسامها، بالطبع كلّ الرجال يبحثون عن صحبة الفتيات الجميلات وقد يتحملون هُم تلك التكلفة عنهنّ، الأهمّ هو أنّك إذا

وضعت جميع بياناتك بشكل سليم وأي البلاد ترغب في زيارتها، وأنّك لا تستطيع تحمل أيّ تكلفة، قد تأتيك دعوةٌ من أحدهم أو إحداهنّ متحمّلين هم كلّ التكلفة، المشكلة أنهم يرفضون تسجيل المصريّين في هذا التطبيق، كيف يمكنني فعلها؟

– بتغيير رقم الآي بي الذي دخلت منه ليظهر أنّك من دولة أخرى.

وفي ثوانٍ قام عامر بتحميل تطبيق يسمح له بتغيير الآي بي، وقام باللازم، ثمّ أعاد الجوال إلى جاسر الذي فتح التطبيق وأشار لعامر قائلًا:

– سنجرّب الآن.

وأمام عيني عامر تمّ تسجيل البيانات وقبولها بسلاسة، فقال جاسر بامتنان:

– شكرًا أيها العبقري.

ابتسمَ عامر ابتسامته الهادئة الرزينة وهو يقول له:

– شكرُك الحقيقي لي ألّا تفوّت صلاة واحدة اليوم.

ضحك جاسر قائلًا:

– لكَ هذا.

واقتحمت أذني عامر مقولة إحدى الفتيات لصديقتها وهنّ يقفن بالقرب منه في انتظار الحافلة كذلك، كانت تقول:

– إيه الواد المُزّ ده؟!

ضحكت الأخرى وهي تقول لها:

- لو حاولت الاقتراب منه الآن، سيقول لك ابتعدي عنّي يا عدوة الله.

نالت منه الفرحة لمقالة الأولى، والحزن من ردّ الثانية، ولم يكن ذلك لأنّه متّهم بالتعصب أو التطرف في الفكر، ولكن لأنّ ردّها يوحي بصورته التي تغلق أمامه جميعَ أبواب التعامل مع الجنس اللطيف، والذي رغماً عنه يتوق إليه، ولكنْ لا يجد إليه سبيلاً.

***

بمنطقة السيدة عائشة بزحامها وأجوائها الشعبية، مع سحبها المتربة دومًا، والأصوات التي لا تكاد تخفت إلّا مع اقتراب منتصف الليل، كان عامر يجدّ السعي بخطواته المسرعة هربًا منها، ولكن أمسك صوتها بتلابيبه وهي تقول برنينه الأجش:

- يا شيخ عامر.

كم تمنّى أن تكون لديه المقدرة على تجاهلها، ولكن لم يستطع، فتوقّف بملامح متغضّنة من أثر وقوعه في براثنها مجدّدًا، ثمّ التفت وهو يزيل أثر هذا التجهم ببسمة تنسحب بصعوبة إلى كامل وجْهه قائلًا:

- نعم يا أمّ عبير.

بصوتها الجَهْوري الذي اعتادت عليه أثناء ندائها على بضاعتها طوال اليوم، قالت له:

- سؤال في الدّين.

- أنا لست شيخًا ولا فقيهًا.

- يووه، وهل سأسأل حودة السّباك؟ ذقنك أمامك مقدار شبرين لماذا؟

رغمًا عنه تحسّس لحيته القصيرة والمنسقة بعناية، والتي يلومه عليها بعضُ المتديّنين أنّها لا توافق شروط اللّحية الصحيحة، وقال لها:

- تفضّلي يا أمّ عبير.

- اقترب قليلًا حتّى لا يسمعنا الآخرون.

تلفّت حوله وكأنه يرصد مَن يراه مقتربًا منها، ولكن تعمّد أن تكون بينه وبينها عربتها الخشبية التي تحمل بضائعها الزهيدة، تنهّد ونظر نحوها بصمتٍ منتظرًا سؤالها، فحاولت أن تخفت صوتها ليصبح مثل درجة الأصوات العادية لبقيّة البشر ظنًّا منها أنّ هذا همس، وقالت:

- إذا جاءت العادةُ الشّهرية بعد انتهائها بخمسة أيام، ولكن على شكل نقاطٍ صغيرة، هل هذه مثلها مثل العادة تمنع الصلاة؟

تنهّد عامر وهو يتساءل بينه وبين نفسِه لمَ أغلب الفتاوى تتعلق بالنّصف السفلي فقط؟! وقال لها:

- أوّلًا أنت أخذت منّي فتوى بعد انقطاعها عنك منذ عامين، فهل عادت مجدّدًا؟ ثانيًا أنت لا تصلّين، فهل تبحثين عن مبرّر لذلك وفقط؟

ضربت على صدرها بقوّة تكاد تحطّم أضلعها، وقالت بصوت جذب كلّ الأنظار نحوها:

- يووه، أنت تحفظ جدول عادتي الشهرية.

كاد عامر يختفي حرجًا، والأعين كلها مصوّبة نحوه على إثر جملتها المُشينة، في حين استطردت هي قائلة:

- أنا أتحدّث عن عبير ابنتي، ثوانٍ سوف أناديها لتخبرك بنفسها.

قال عامر مسرعًا:

- لا داعي لذلك، فســ...

قاطعته قائلة:

- والله أبدًا، لا بدّ أن تسمع منها بنفسك، إنّها بنت مصلية، تعرف الله ومؤدّبة ومتعلمة مثلك.

كالعادة لم يستطع عامر أن يفلت من بين أنيابها التى أعملتها به، وهي تمسك بجوالها المهترئ وقد اختفت منه كلّ الأرقام تحت الكثير من الأوساخ، وانمحى بعضها من كثرة الاستعمال، وبصوت جَهْوري استمع إليه بعضٌ من سكان إقليم البنجاب طالبت عبير بسرعة المجيء، وعامر يحاول الهروب منها بأنّ لديه مذاكرة ودروسًا، ولكن لم تفلته حتّى ظهرتْ عبير التي تناقض أمّها في كلّ شيء، نحافة جسدها وصوتها الهادئ والخافت جدًّا، وعينيها الخجولتين المتردّدتين بسرعة الرمش أثناءَ كلامها المتقطّع لشدّة اضطرابها عندما تحاور غريبًا.

رغمًا عنه أخذ عامر يتطلّع إلى ملامحها الدقيقة بعينيها الجميلتيْن واللّتيْن يتمنّى أن يطيل النّظر إليهما، ولكن سريعًا ما يغضّ البصر عنهما خشية أن يتمّ

الإمساك به متلبّسًا بتهمة الوقوع في براثن الإعجاب بها، شعرَ عامر أنّ كلّ الأصوات الكثيرة والمتنوعة قد صمتت فجأة وكأنّ أحدهم قد ضغط زرّ كتم الصوت بجهاز التحكم لهذه المنطقة، ليخرج صوت عبير الرّقيق وهي تختطف نظرةً سريعة فرحة نحو عامر قائلة:

- نعم يا أمّي؟

وإذا بضجيج المفرقعات الصّاخب يخرج من بين شفتي أمّها لتفضحها على الملأ قائلة:

- قولي له عن عادتك الشّهرية ماذا حدث لها هذه المرّة.

شعر عامر بها وهي تنسحقُ تحت وطأة الخجل الذي نال منه، فتردّد وقال مسرعًا وهو يحاول تفادي عينيها:

- لو أمكنك الدّخول على الإنترنت ابحثي عن شيء يسمّى الاستحاضة.

وتركها وهو ينطلق مسرعًا ليترك لها فرصة التنفّس بعد أن كادت دقّات قلبها تُصرع بسبب أمّها.

ولتهتزّ أوتار قلبه طربًا لصوتها الذي لا يدري ما هي القاعدة العلمية الذي سمحت له أنْ يخترق كلّ هذا الموجات العالية النّشاز والتلوث السّمعي وهي تقول بمنتهى الخفوت:

- حاضر.

***

اطمئنّ عامر بأنّ أباه قد ذهب إلى أعمق درجات النوم، فأوصد غرفته بإحكام، واستخرج حاسوبه المحمول مفسّحًا له مجالًا ليضعه فيه على مكتبه، بعد أن أزاح الكثيرَ من الكتب والمذكرات، وفور أن أتمّ فتح الجهاز توجّه مباشرة إلى مجلّد خفي وأظهر ما فيه من أفلام أمريكية يعشقها، ولا يستطيع مشاهدتها في وجود أبيه؛ لعلمه التّام برفضه لها، وعلى الفور قام بتشغيل أحدثها وانغمس في أحداثها المثيرة والشيقة والسّريعة، وبعد أن أتمّ مشاهدة الفيلم وتشبّع من جرعة المتعة الذهنية التي يرنو إليها، همّ أن يغلق الجهاز ليذهب إلى غياهب النوم، ولكن لمح مؤشّر صفحة الفيس بوك لديه يلمع برسالة قادمة، توجّه مباشرة إليها ليختم بها حفلته، وإذا بها قادمة من جاسر زميله، الذي شكره بحرارة على خدمته الجليلة التي تمكّن بها من التسجيل والتفاعل في التّطبيق، وأرسل له صفحة التطبيق ليرى ما قام بتسجيله عن نفسه وهل يجب أن يضيف عليها شيئًا كي يتمّ قبوله في تبادل الرحلات المتعاون هذا، أم لا؟

همّ عامر أن يتجاهله حتّى لا يفتح حوارًا معه قد يطيل عليه السهر وينتقص من نصيب راحته، ولكنْ توجّهت يده بشكل تلقائي إلى الرابط الذي أرسله وقام بفتحه، صفحة التطبيق على المتصفح العادي كانت سريعة وأنيقة، رأى ما كتبه جاسر عن نفسه بشكل ساذج، فقد كتب أنه لا دخل له، وضعيف الحال، ووضع صورة سيئة له مستعطفًا بها الآخرين ليتحمّلوا عنه تكلفة السفر، هذا الغرّ! إذا لم يكن لديك ما يغري الآخرين فيك، فما الدّافع إذًا لمكابدة نفقة السفر لأمر ترفيهي وليس من ضرورات الحياة؟

حتمًا لن يفعلها إلّا تجّار الأعضاء البشرية، ابتسم سخرية وهمّ بأن يغلق ولكنْ ظهرت على الجانب الإعلاني للصّفحة صورةٌ لإحدى الحور ترغب في السّفر إلى فرنسا، لم يستطعِ انتزاع عينيه عنها بجمالها الأخّاذ، والذي سعتْ أن تظهر كلّ مقوّماته قدر استِطاعتها، قام بفتح الإعلان ليجد أنّها فتاة أوكرانية في مقتبل العشرينيّات من عمرها، وبالطّبع كانت صفحتها تكتظّ بدعوات السفر لها من رجال حول العالم متحملين التكلفة!

أخذ زرّ الاشتراك بالموقع يلمع أمامه بقوّة تكاد تغشي بصره حتّى أنه لم يعدْ هناك بمجاله البصري سواه، وبالطبع في خلال دقائق كان قد سجل اشتراكًا بالموقع، وضع كلّ بياناته الرئيسية وصورة جذابة له بلحيته القصيرة الأنيقة ووجهه الوسيم الممتلئ بالرجولة وشعره الأسود الكثيف والنّاعم، وكتب في خانة البلاد التي يرغب في السفر إليها رغبته في الذّهاب الى أي دولة تتحدّث الأسبانية.

وبعدها بقليل كان يغطّ في نوم عميق بدأ بسلسلة أحلام بها الكثير من الأحداث غير المترابطة، ولكن تمتلئ بسيارات تطارد بعضها البعض ورصاصات تتناثر هنا وهناك، وكان الختامُ مع الفتاة الأوكرانية الساحرة!

***

انتهى الشّيخ من إلقاء درسه الثّابت يوم الثلاثاء أسبوعيًّا، وكان الموضوع عن حلقة جديدة من تاريخ الأندلس الفقيد، ممالك زاهرة اندثرت وتاريخ باهر طواه النسيان بسبب مطامع الأمراء وسعيهم إلى ملذاتهم الشّخصية

وتصارعهم لأجل دنيا زائلة، فضاعت منهم ممالك فتحها آباؤهم بقطرات العرق، التي انسابت عن جباهٍ لم تعرف إلّا الخضوع والخشوع والسجود لخالقها وفقط!

خرج عامر يتهادى بجوار أبيه الذي أخذ يهمس بالحوقلة وكثير من الأذكار التي لا يكفّ لسانه عن ترديدها كأنّما تخرج بشكل تلقائي أو لا إراديّ منه، ولم يستطعْ عامر أن يكتمَ تساؤله الكبير الذي نال منه بعد درس اليوم، فقال بتردّد:

– ما الفائدة من درس اليوم يا أبي؟ حتمًا لن أكون أميرًا أو رئيسًا حتّى أدرسَ مغبّة تنازع الملك ذلك!

ابتسم أبوه بودّ، ووضع ساعده على كتفه كأنّما هو صديق له من نفس عمره، وقال له بهدوء:

– أمريكا التي قامت على مذابح الإبادة الجماعية وعمرها من أقصر أعمار الأمم، لمَ تنشئ لنفسها تاريخًا توحي بأنه مجيد وتقوم بحشوه في رؤوس أبنائها؟

– لتربطهم بجذور حتّى ولو كانت وهمية.

– لمَ تفعله رغم أنّ حاضرها قد يوحي بعدم الحاجة لذلك؟ فهم قادة العالم المسيطرون عليه الآن بلا منازع!

– لا أدري!

– لأنّك بلا تاريخ لن يكون لك حاضر، وسنن الله في الكون حكمت بصعود أمم وهبوط أخرى؛ لذا فهُم يتحسّبون لذلك اليوم ويزرعون في قلوب الأجيال الجديدة جذورَ العزّة التي تساعد على العودة سريعًا إن تمسّكوا بها، وأمّتنا لديها كلّ عوامل الصّحوة والعودة لسابق عزتها، ولكنْ مع سيطرة أعدائها على مقاليد الأمور يتمّ السعي– بجدّ– لطمس وتشويه كلّ ما يساعد على ذلك، ومن أهمّ أهدافهم ألّا تحتفظ الأجيال الجديدة بمشاعر عزّتها وقوتها القديمة، وأن يتمّ ترسيخ الهزيمة النفسية بداخلهم بشكل أبديّ دائم.

هزّ عامر رأسه بفهم وقال:

– فهمت مقصدك.

ربّت الأب بحنان على كتف ولده، واتّسعت ابتسامته وهو يقول:

– ومَن قال بأنّك لن تكون رئيسًا أو زعيماً للأمّة، فما ربّيتك إلّا لأجل هذا.

تلفّت عامر حوله وقال ضاحكًا:

– يبدو أنّك لا تريد الوصول إلى البيت سالمًا.

بادله الأب الضّحك، وعاد لبسملته وحوقلته وبقية أذكاره.

***

كأنّها المعيار الحقيقي للجَمال الذي يجب أن يتمّ القياس عليه لكلّ بنات حواء كم يبلغنَ منه، لم يكنْ بها خطأ واحد أو تفصيلة صغيرة يمكن للعين ألّا تتوقف عندها متّسعة بانبهار حقيقي، ومع كثرة الصور بصفحتها تبيّن له

أن هذه هي حقيقتها بالفعل وليس بفعل المساحيق وأيدي خبراء التجميل، ماريانا ذات الثمانية عشر عامًا، والتي إن لم تكتبْ عمرها حتما ستمنحها عمرًا يدور حول منتصف العشرينيات، المقيمة في كولومبيا بأمريكا الجنوبية، والتي يظهر عليها من ملبسها والأثاث والمباني التي تمّ التقاط الصور حولها أنّها ابنة لثري كبير منحها ما تريد من دلال ورفاهية!

أرسلت طلبًا لعامر أنْ يرافقها ما شاء بقصر أبيها في كولومبيا التي تتحدّث الأسبانية، ارتفعت دقّات قلب عامر إلى حدها الأقصى سرعة وقوّة، حتّى أنه لم يعدْ يسمع سواها، وقد توقّف الزمن به، لم يخطر بباله وهلةً أن يتمّ دعوته عبر هذا التطبيق، وإن حدث فلنْ يكون مجّانًا بشكل كامل، وإن تمّ فحتما لن يكون مع هذا الكائن الأسطوري بجماله وجاذبيته الفائقين!

بالطّبع ردّ بالموافقة دون تفكير، وظلّ ما يقرب من الساعة يتقلب في صفحتها، ويعيد مشاهدة صورها، حتّى أنّه قد احتفظ في خياله بنسخة مكتملة من أدقّ تفاصيل خلقها!

يا للْحظّ الثري الذي ناله عبرَ هذا التطبيق الرائع، توقفت كلّ مذاكرته وقد اندفع الدّم بقوّة وحرارة إلى رأسه لينزع عنها أيّ شاغل آخر سوى اهتمامه بماريانا الساحرة، وظلّ يتقلّب في فراشه عسى أن تغفل عيناه فتنازع تلك الأوكرانية السابقة في عالم أحلامه، ولكنها كانت أكبر من أن تكون حلمًا، فهي واقع يترقّبه بعد قليل، وغفت عيناه وقد قررت ماريانا ألّا تكون إلّا واقعًا متكاملًا.

***

انقلبت حياة عامر بشكل تام، أصبحت ماريانا هي رفيقته في كلّ ما يدور حوله، هي المحور الرئيسي الذي تدور به أحداث حياته، يسير بجوار أبيه الذي يلهج لسانه بخالص الدعوات له أن يحفظه من كلّ فتن الدنيا والآخرة، والتي تتسرّب إلى أذن عامر بعضها، وهو لا يدري كيف يمكن أن يفاتح أبيه في أمر هذه الرحلة، حتماً لن يخبره عن ماريانا، ولو بلمح القول، فهذا هو السبيل لقتل كافة الآمال في ذهابه إليها!

أخذ يعدّ الخطط في أنْ يجعل هذه الرحلة منحةً تابعة للكلية للتعلم التّطبيقي للّغة الأسبانية في برنامج تبادل ثقافي مع إحدى الدول الناطقة بها، أنشأ بريدًا يحمل اسم الهيئات الرّسمية بأمريكا الجنوبية وأرسل منه إلى بريده الشّخصي رسالة بأنّ اسمه مدرجٌ ضمْن أحد هذه البرامج وقد وقعَ الاختيار عليه ليكون أحدَ المسافرين إلى كولومبيا في الإجازة الصّيفية القادمة.

شعوره بالإثم كان يتمكّن منه، وتزيغ عيناه وهو يعلم بأنه قادم على مصائب كبرى؛ الكذبُ أوّلها، وارتكاب الكبائر حتماً سيكون منتهاها، ولكنْ كان الإغراء أكبر من مقاومته بكثير، في إحدى لحظات الصدق مع نفسه كان يأتيه الخاطر بأنّه كان في نعيم كبير بعدم تعرضه لتلك الفتن؛ فتكون المَنْجاة منها، وها هو بأوّل اختبار واقعي له، سقط فيه بامتياز!

ولم يكنْ يعلم هل هذا هو هوى النفس أم إغواء عدّة شياطين له؛ عندما تأتيه الردود بأنّ الله أراد له هذه الرحلة، ولو لم تقع في مشيئته ما أتته هذه الفرصة التي يحلم بها كلّ رفاقه!

وعندما ينال منه التردّد حينًا، تأتي صورة ماريانا السّاحرة بغنج ودلال فاتنٍ لتمحو جميعَ آثاره، أصبح يقف بصلاتِه مستثقلًا لها وهو لا يدري هل ستقْبَل منه أم لا؟ وصورة ماريانا تشغلُ باله، لم يعدْ يعلم هل عند خروجه عنْ سلطة أبيه الآن سيلتزم ويواظب على صلاته هذه أم لا؟!

في جلساته المتفكّرة عن مصيره القادم يعلم جيدًا ما هو ذاهب إليه، صحبة هذه الفاتنة، ومع ثقافتها المنفتحة والحرية المطلقة لها هناك حتمًا لن تكون صحبةً بريئة، أو بها التزام بأيّ حدود أو أخلاقيات يعلمها وتربّى عليها، وهو يعلم بأنه ما وافق إلّا لأجل ذلك!

هل بعد عزمه الأكيد هذا على المعاصي الكبيرة يمكنه الوقوف هكذا بكلّ نفاق أمام الله عزّ وجلّ!

كيف يمكنك الوقوف بخشوع وتذلّل أمام أبيك وأنت تضمر له العصيانَ، ومخالفته في كلّ ما ينهاك عنه بعد قليل؟!

سابقًا كان يذهب متثاقلًا إلى العبادة مع أبيه ولكن مع انغماسه فيها كانت تأتيه أوقاتٌ يطيب قلبه بذكر الله، وتطمئنّ نفسه بالجوّ الروحاني الرّائع الذي يسبح فيه، فينتزعه من كلّ مشاعر سلبية قد تحوم حوله.

أمّا الآن فقد أصبح جسدًا خاويًا يميل بحركات لا روح فيها، ومشاعر الإثم قد صرعت أيّ أمل في عودة هذه اللحظات القليلة إليه.

أخذ يتطلّع الى ملامح أبيه الطيبة الخاشعة الهادئة وهو يقول له:

– على بركة الله يا ولدي، ولكنِ اجْعل مخافة الله هي دربك، وطاعته هي سبيلك، وانْتَو بهذه الرّحلة علماً ينتفع به إن شاء الله، فتقع في سلة حسناتك.

كانت هذه الكلمات خناجرَ تنهمر عليه فتؤلمه بكلّ موضع تنغرس فيه، ولكنْ لم يكن لديه سبيلٌ إلى النكوص عمّا اعتزم، فيهزّ رأسه بألم محاولًا إخفاء آثاره على وجهه، ويقول له بخفوت:

– إنْ شاء الله يا أبي.

***

وقف عامر أمام التّلميذات الشاحبات اللاتي جئنَ إلى القاعة الملحقة بالمسجد لدرس التّقوية المجاني في اللغة الإنجليزية، والذي يجتهد فيه بتحفيز كبير من أبيه، كانت هي في مقعدها الثابت على الطرف اليمين بالصفّ الأوّل، تمسكُ بدفترها وقلمها وتكتب أشياء لا يدري ما الدّاعي إليها، وبين الفينة والأخرى تنتزع نظرةً سريعة خجولة نحوه، كان سابقًا يفرح عندما يصطاد هذه النّظرة، وتتألق عيناه عندما تتورد وجنتاها خجلًا إذا التقى شعاعُ أعينهما ولو بلحظات خاطفة، أمّا الآن فقد تغيّرت مشاعره بشكل عجيب، أصبح يشفق عليها وهو يراها كومة من الإهمال والفقر والمشاكل الاجتماعية المتراكمة!

عندما كانت في مقارنة بين زميلاتها كانت هي الفائزة بالأفضلية بأخلاقها وجمالها الهادئ وتفوّقها الدراسي المتألق رغم كلّ المعوقات التي تمنعه، أمّا الآن فهي في مقارنة ظالمة لا يجب أن تقام من البداية!

فكيف توضَع في كفّة، ويقابلها في الأخرى ماريانا المبهرة بكلّ جمال وسحرٍ وفتنة وثراء ورقيّ!

أخذ يشرح درسه مفتقدًا شغفه المعهود، والشّفقة بداخله نحوهنّ جميعًا تتصاعد عندما تتألّق صورة ماريانا في مخيّلته أمامهن، هو نفسه يتساءل لماذا يرهقنَ أنفسهنّ وأهاليهن في تلك المذاكرة والعاقبة معلومة للجميع!

وبعد أنِ انتهى، وبدلًا من أن يبتكر المسبّبات التي يتجاذب بها الحديث مع عبير، جمع أشياءه وهمّ بأن ينطلق مسرعًا لينتزع نفسه من المشاعر الكئيبة التي اعتلتْ كتفيه هذه المرّة، ولكن ولأوّل مرّة نادت هي عليه قائلة:

- مستر عامر.

كان نطقها الهادئ لاسمه سابقًا يداعب شغاف قلبه، والآن شعر به كتيارٍ بارد يصفع وجهه، فالتفت بوجهٍ جامد منزوع الابتسامة المعهودة والسعيدة فيما سبق، وقال:

- نعم؟

- جهاز الكمبيوتر يخرجُ لي رسائلَ غريبة لا أدري كيف التعامل معها.

يذكرُ جيدًا جميع العيوب التي يعاني منها هذا الجهاز، فقد عمل عليه لسنواتٍ عدّة، وعندما كافأه والده بشراء حاسوب محمول بعد نجاحه في الثانوية العامة، لم يمانع الأب عندما طلب منه عامر أن يمنحه كهديةٍ لأمّ عبير لتحدّث ولدها عبر برامج التواصل على الإنترنت، ذلك الولد الذي ذهب إلى ليبيا منذ سبعة أعوام ولم يعدْ بعد!

فرح أبوه بمشاعره الطيبة، ولكن كان هدفُ عامر الرئيسي هو التواصل السّريع مع عبير، فهو الذي سيقوم بتعليمها كيفية العمل عليه، وذلك بعد أن جلب لها وصلةً رخيصة الثمن؛ أمدّهم بها مقهى الإنترنت القريب، تكفّل عامر بدفع الاشتراك الشّهري له، بشرط أن يخبرهم أن هذه الوصلة مجانيّة لأجلهم فقط.

كانت عبير تقف أمامه تنتظر إجابته التي نطق بها أخيرًا قائلًا:

– راسليني على الفيس بوك، وانقلي لي صور هذه الرسائل وسوف أرشدك لكيفية التعامل معها.

بمنتهى الخفوت الذي اعتاد عليه صوتها انطلقت فرحة وهي تقول:

– حاضر.

وعلى عكس كلّ مرّة، فقد تاهت كلمتها هذه المرّة وضلّت السبيل!

***

مرّت الأشهر الثلاثة بطيئة متثاقلة، تنافس السلحفاة في الملل والرتابة، تأرجحت فيها مشاعرُ عامر بين استفاقات تنتابه كلّما زاد انغماسه في الطّاعات التي يجرّه أبوه إليها مرغَمًا، وكلّما رأى الوجوه الوضاءة التي تفيض بكلّ طيبة وبساطة وهم يجلسون بالمسجد تحوطهم الخشية، ولكن ما إنْ يذهب لمحاورة ماريانا حتّى ينسحق كلّ ذلك الأثر، كانت في حواراتها سريعة ملتهبة لا تزيد عن خمس دقائق تخبره بسرعة عما فعلتْ في يومها وما اشترت،

وما تخطط لليوم التالي، وقبل أن يردّ عليها بأيّ سؤال، تكون قد أغلقت، وبلا استئذان في أغلب الأحوال، كانت تفيض بالحيوية والانطلاق والدّلال في نفس الوقت، وعندما يطلب منها صورةً جديدة، ترسل له صورة تؤجّج بداخله جميع رغباته الفطرية التي تمحق كلّ مقاومة أو تفكير عقلانيّ لديه، وأخيرًا وبعد أن أعدّ كلّ أوراقه اللّازمة للسّفر، وانتهى من أداء امتحاناته النهائية، أرسلت له ماريانا تذاكرَ سفره وألف دولار عبر إحدى خدمات تحويل الأموال العالمية، وذلك لأيّ مصروفات قد يحتاج إليها خلال سفره الطّويل، والذي قد يزيد عن تسعة عشر من السّاعات!

توقّف مفكّرًا في لحظاته الأخيرة، وهو يتشكّك في كلّ ذلك، يشعر بمكيدةٍ في هذا الأمر، وسط هذا العالم المادي الأناني، هل يكفي جنون تلك المراهقة ودلال أبيها الزّائد لها أن تنفق كلّ ذلك لأجل إعجابها بملامحِه والرّغبة في شيء جديد وفقط؟!

ولكنْ عبر الحوار معها خلال الأشهر الثلاث الماضية تيقّن من ذلك الدّلال الزائد عن الحدّ، والبذخ الذي ترفل فيه، ما يراه هو إنفاقًا زائدًا عن الحدّ قد يمثّل لها ثمن وجبة ترفيهية قد تتذوقها وعندما لا تستسيغها تتركها وتنصرف غير نادمةٍ ولا متألمة لما أنفقت فيها!

مازحها ذات مرّة قائلًا لها:

- هل تريدين المتاجرة بأعضائي بعد تقطيعي إلى قطع غيار بشرية؟

ضحكت ولم تدركْ مغزى سؤاله، وقالت ببساطة:

- سيكون ذلك في حال إذا أغضبتني.

وقتها أسكن هذا السؤال مقبرته؛ تبريره بأن تقطيع أحد الفقراء لديهم أقلّ ثمنًا من جلبه من أقصى الأرض.

أخيرًا، ودّعه أبوه بحضن دافئ عميق وطويل، مسح على رأسه بودّ، وبعين دامعة قائلًا:

- اتّق الله حيثما كنت، وعدْ سالمًا بحفظ الله.

أجّجت هذه اللحظة كلّ مشاعره المتضاربة حتّى كاد يلقي حقيبته ويعود برفقةِ أبيه، ولكن رصيد الأشهر الثلاثة السابقة كان حائلًا دون ذلك، فهزّ رأسه ببسمة متوجّعة، وانطلق إلى الطائرة التي ستقله إلى دبي كمحطّة انتظار للطائرة التّالية إلى كولومبيا، إلى حيث الحرية المطلقة التي لا حد له.

***

كانت الرحلة من القاهرة إلى دبي لا تفرق كثيرًا عن استقلال إحدى الحافلات بكلّ تلك الوجوه العربية والتي أغلبها كان مصريًّا، وطاقم الضّيافة العربي، والذي يتحدّث بمنتهى الرقيّ والدبلوماسية عند تقديم الخدمات البسيطة المعتاد عليها في رحلاتهم الطائرة، وفي وقت الانتظار للطائرة التالية في مطار دبي الشاسع، تجوّل عامر بسوقه الحرة جالبًا لنفسه زيًّا جديدًا يليق بوجهته وغايته منها، وداخل أحد الحمامات قام بارتدائه وخرج وهو ينظرُ إلى نفسه بالمرآة غير مصدّق بأنه هو نفسه، زادته نظارته السوداء القاتمة غموضًا وسحرًا، وبقميصه الخفيف والمرسوم عليه ظلُّ رأس فتاة مثني للخلف وهي تنفث دخانًا من فمها، وبسرواله القصير لأسفل الركبة تمامًا، يصعب على من يراه تحديد جنسيته الحقيقية!

وبينما هو ينتظر سائلًا الدّقائق أن تسرع في دقاتها، لمع المصحف ذو الغلاف الأخضر برسمه وزخرفته الإسلامية العتيقة أمام عينيه، تذكر عندما منحه أبوه إيّاه قائلًا له:

– ثقْ أنّ المنجاة فيه.

طرق قلبَه ألمٌ وغصّة وقيودٌ واهية تجذبه للخلف، ولكن بالنسبة له فقد قضيَ الأمر، وعندما يزداد الطرق على رأسه بعصا الضمير يخبره قائلًا:

– إنّ الله ليفرح بتوبة العبد وإنْ جاءه بملء الأرض ذنوبًا، فمهما فعل وعند عودته إلى كنف أبيه العابد، حتمًا ستثقله الذنوب ويستقل قطار التّوبة السريع فيتخلّص من كلّ دنس مسّه، إذًا لينهل بعضًا من متع الدّنيا التي كم تاقت نفسُه إليها، فكم تمنى مصاحبة كلّ هؤلاء الذين ينطلقون بمنتهى الحرية وينالون من المتع ما شاءوا، ولكن كانت سمعته ومحيطُه الذي يدور في فلكه يقف حاجزًا قويًّا بينه وبين ذلك!

أمّا الآن، سيفعل كلّ ما يريد بلا حواجز ولا موانع، ولن يراه أو يعلم مخلوق بما اقترف، وإنْ كان الله رقيبًا عليه، فهو يأمل في رحمته ومغفرته التي وسعت كلّ شيء!

أمسكَ بالمصحف بين يديه وهو يراه أحد تلك العوائق بينه وبين حريته التي يترقبها، وهمّ بأن يضعه جانبًا على أحد مقاعد الانتظار بالمطار حتّى لا يؤلمه رؤيته بعد ذلك، ولكنْ شعر بنظرات أبيه اللائمة والصامتة أقسى عليه من الأذى الجسدي، فدسّه في أبعد جيب بحقيبته حتّى لا يقعَ في دائرة بصره بعد ذلك.

وأخيرًا استقلّ الطائرة المتوجهة إلى محطته التالية والتي ستظل محلقة بين السّحاب مدة ستّ عشرة ساعة متواصلة، رغم انطلاقه من دبي العربية وعلى أحد الخطوط العربية إلّا أنّ كلّ شيء قد اختلف هذه المرّة، بدءًا من طاقم الضّيافة غير العربي، إلى وجوه الركاب التي تنوّعت ما بين الأوروبي والأمريكي وبعض الملامح لدول شرق آسيا، وانطلق طاقم الضيافة ليتحدّث مع الجميع بلغتهم الأصلية، وعند عامر الذي بدأ الحديث معهم بالإنجليزية لم يحاوروه بسواها!

اختلف شعور عامر كثيرًا وقد بدأت الرّهبة تنهش قلبه، كان ينظر إلى كلّ تلك الوجوه التي تتحاور مع مجاوريها بألسنة متنوعة ويخرج الهمس واللّغط بأصوات متباينة دفعته لأنْ يهتف بصمت داخلي قائلًا:

– سبحان الله!

أخذ يتطلّع لكلّ تلك الملامح محاولًا قراءة ما خلفها من آمال ومشاعر، وتساءل ترى ما الحال إذا سقطت الطائرة الآن؟

هل سيختلف مصيره عنهم؟

بل لمَ حكم عليهم بأنّ مصيرهم أسود؟

الله أعلمُ بحساب كلّ منهم عنده سبحانه، فهو وحده الحاكم على الجميع عند المآل الأخير.

أغمض عينيه وأخذ يستغفر، وبدلًا من عزمه السابق أخذ يتفكّر في سبل زواجه الشّرعي بماريانا ليصل إلى كلّ ما أراد بلا انغماس في الأوحال التي تناقض كلّ ما تربّى عليه، ولكن هل ستقبل هي بذلك؟!

أخذ يتفكّر في كيفية أن يصير الأمر هكذا، وأن تكون هذه نواياه، حتّى إذا قضيَ الأمر قبل وصوله لا يكون مآله إلى حساب عسيرٍ بسبب تلك النّوايا السابقة وهو الذي لم يمسّ الحرام بعد!

تنوّعت وسائل الرّفاهية بالطائرة التي جعلت الساعات الطوال يطوين بلا ملل، وأخيرًا استقلّ الطائرة الأخيرة بعد انتظار لم يملّ منه في مطار أورولاند بالولاية الأمريكية فلوريدا، وفي هذه الطائرة رصدت عيناه الملامح المميزة للأصول التاريخية بأمريكا الجنوبية، ورنت أذناه بالكثير من الكلمات الأسبانية والبرتغالية، وأخيرًا سحب حقيبته الوحيدة وانطلق إلى باب الخروج من مطار العاصمة الكولومبية بوجوتا، ليجدها تنطلق نحوه مسرعة وهي تصرخُ باسمه لتتعلّق برقبته مرفوعة عن الأرض وساقاها منثنيتان للخلف وللأعلى.

***

كانت الصّورة الذهنية المترسّخة بوعي عامر عن كولومبيا أنها عبارة عن عدّة غابات مليئة بالعصابات واللصوص، وسحب الدخان المتخلقة عن تعاطي وتجارة المخدرات تغطي سماءَ البلد بأكلمه، وأينما توجهت حتمًا ستجد رصاصة منطلقة نحوك بلا سبب!

هذه هي الصّورة الثابتة لهم في جميع الأفلام الأمريكية التي يعشقها، وهذا أكثر ما يخشاه ويترقّبه منذ إعداده لهذه الرحلة، ولكن بدءًا من المطار الثّري والمتميز برقي قد يفوقُ مطار أورولاند بفلوريدا الأمريكية؛ التي مكوثه بها أربع ساعات منتظرًا طائرته الأخيرة، فهنا ضباط الجوازات تحمل وجوههم بسمةً لطيفة، وبلا أيّ منغصات أو تشكك نحو هويّته العربية ولحيته انتهت جميع إجراءاته في ثوان، وها هو يجلس بجوار ماريانا في سيارةٍ جيب ذات دفع رباعيّ تنطلق منسابة في هدوءٍ بشوارع المدينة الواسعة والنظيفة والمنسقة بعناية، وعلى الجانبين ترتفع المباني الشّاهقة والحديثة متألقة بألوانها الأخّاذة، والتي تمّ اختيارها بعناية، وعلى الرّصيف الخاص بالمشاة ينطلق المارة بهدوء يناسب الجوّ اللطيف؛ والذي جاء على عكس توقع عامر، فقد كان متحسّبًا لشدّة حرارته في هذا التوقيت بشهر يونيو، ولكن كان الجوء باردًا، وينذر بالمطر بعد قليل، وعلى مدّ البصر كانت ترتفع الجبال المكتسية باللون الأخضر، وعلى قممها أبخرة سحابية تتحرك كأنها نتفٌ ثلجية بإحدى الألعاب البلورية التي تنتشر متناثرة عند هزها بقوة، توقّفت السيارة أمام إحدى الإشارات المرورية، ومن موضع عبور المشاة المرسوم بخطوط رأسية متعاقبة اندفع المارة عابرين فوقها، أُخذ عامر بهذا النظام والنظافة والرقي الذي لم يتذوّقه من قبل!

كانت ماريانا مُحتضنة كفّه اليمني وهي مرتمية برأسها على كتفه بالكرسي الخلفي، والسائق الصامت يرتدي زيّه الأنيق والمكون من صديري أسفله قميص بنصفِ كمّ، ويحمل شاربًا كثًّا مع نظارة سوداء كبيرة تخفي أغلبَ ملامحه،

الوجه عتيق ويتناسب تمامًا مع وجه زعيم عصابةِ مخدرات أو تجارة عبيد، وليس لسائق يعتمد دخله على تحمل دلال هذه الصّبية التي أصابت عامرًا بماسّ كهربي مستمر بما فعلت وتفعل، حتّى الآن هناك حائلٌ وحاجز كبير بينه وبين الاستجابة القوية لما تفعل، فعند المطار لم يقوَ على احتضانها، وتركها متعلّقة برقبته حتّى تفلّتت بنفسها وهي تنظر إليه قائلة:

– كم أنت وسيم بأكثر ممّا في الصور.

وهي المحتضنة لكفّه الآن والتي لم يحاول أن يجيب على كفّها بعناق مماثل، ولو بأطراف أصابعه، كان يشعر بيدها باردة وناعمة، ورغم أن هذا ما كان يتوقُ إليه من قبل، ولكن مازالت هناك ارتجافة بداخله تصنع رهبةً تفسد عليه مشاعره التي يصبو إليها.

ظلّت السيارة منطلقة وسطَ المدينة اللامعة وقد بدأ ارتفاع الطوابق في الانخفاض حتّى لم يعدْ سوى المنازل ذات الطّابق الواحد، وأخيرًا بدأتِ السّيارة في الخروج من حيّز العمران إلى طريق الغابات كما يبدو، وعلى مدّ البصر لم ترَ عيني عامر إلّا الخضرة المريحة، الطرق ممهدّة بعنايةٍ بين الأشجار التي تصنع تشكيلًا يريح القلب قبل البصر، وأخيرًا وصل إلى سورٍ شاهق انفتحت بوّابته الحديدية بشكل تلقائي قبيل وصول السّيارة إليه، والتي أكملت مسيرها دون توقّف وقد بدأت ضفتي البوّابة في الانغلاق بشكل يبدو آليًّا، وبالداخل كانت حديقة تمتاز بمروج متنوعة الألوان بكثير من النباتات والزهور التي بدأ عطرها ينساب إلى أنف عامر ليجعله مستشعرًا أنه دخل إلى إحدى واحات الجنة!

وأخيرًا توقّفت أمام قصرٍ فعليّ مكوّن من طابقين، الطابق العلوي غزير النّوافذ الضّخمة المزخرفة والمرسومة بعناية باللون الأزرق، وبقية السور يلمعُ باللون الأبيض شديد النّقاء بلا أيّ أثر للأتربة أو أي عوامل جوية مؤذية له، والطابق السفلي أغلب جدرانِه من الزجاج ويظهر بالداخل التّأثيث الفاخر، هبطت ماريانا أوّلًا، وظهر عند الباب الزجاجي للقصر رجلٌ مهيبٌ بجسده الضّخم وشاربه المتناسب مع هذه الضخامة، وبشعرٍ ناعم طويل مُنساب خلف رقبته، وبملامح رجوليّة خشنة وقف ينتظرُ ظهور عامر بعد هبوطه من السيارة.

اندفعت ماريانا نحو الرجل وهي تهتف قائلة:

- إنّه أكثر من رائع يا أبي.

هبط عامر من السيّارة، ووقف يتطلّع نحو أبيها وهو لا يدري ما المناسب نحوَ لقاء هذا العملاق، والذي ظنّ أنه سوف يغافله ويعبث بما يشاء مع ابنته!

ولكنّ هذه الأمور من الحريات التي لا يتدخّل الآباء فيها، بل ويتفهّمونها بشكل يراه عامر منتهى الدّياثة ولا يتقبل مبرّراته أبدًا، هذا حسبَ رؤيته وتكوين ثقافته عبر مشاهدة الأفلام التي خالف الواقع أحد مظاهرها أثناء رحلته البسيطة من المطار حتّى هذا القصر، فهل سيكتشف أكثرَ من ذلك مخالفة؟

بكلّ صمت غامض فتح الرّجلُ ذراعيه منتظرًا إلقاء عامر نفسه بينهما في حضنٍ يصعب تقبّله على أنّه أبوي!

وفجأة طرقَ روْع عامر خاطر عجيب، هذا العملاق هل من الممكن أن يكون من الشّواذ، وكلّ هذه الرحلة إنّما كانت لجلب عامر كصيد إليه، ارتبكت مشاعرُه وأفكاره عندما جاءه هذا الخاطر الذي يدعمه رغبة الاحتضان غير المنطقيّة هناك مترقّبًا لها؛ لذا بتردّدٍ بدلًا من الانسياق لما أراده ذلك الرجل الشاذّ أو الأب الديوث أيّهما أقرب؛ مدّ عامر يده طالبًا المصافحة فقط وهو يرحّب به.

ابتسم الرجلُ ابتسامة شاحبة انزوت سريعًا وهو يسأله عن الرحلة وكيف كانت، ليجيبه عامر بأنّها كانت طويلة وشاقّة، ولكن ممتعة، وضع الرجلُ ساعده الأيسر فوق كتفِ عامر كأنّما هو صديق عتيق له واصطحبه للدّاخل، وعامر يكاد يئنّ من ثقلها وثقل خيالاته المرعبة التي توحي له بأنّه قد وقع في الشّباك بقدميه، ولا فكاك له منها بعد الآن.

***

أخذَ عامر يتطلّع إلى كلّ مظاهر الثراء والفخامة بغرفته التي دعاه جيفيد والد ماريانا للصّعود إليها كي ينال قسطًا من الراحة، وحتى يتمّ إعداد وجبة الغداء التي سيتجمّعون عليها، قبيل صعود عامر إليها تردّد قليلًا ليرى هل سيصعد وحده أم سترافقه ماريانا التي انصرفت عنه تمامًا إلى شاشة سينمائيّة ضخمة، وأمسكت بالذراع الإليكتروني لتنغمس في ألعابها عليها!

شعر بأنّها طفلة هوائية مدلّلة لأقصى حدود الدلال بواسطة أبيها الغامض هذا، فصعدَ إلى تلك الغرفة التي لبثَ أكثر من عشر دقائق فقط ليتفحّصها،

وأخيرًا ذهب الى الحمّام الملحق بها واغتسل بمائها الدّافئ الذي استمتع بانهماره على جسده مستخدمًا أغلب المنظفات والمعطرات وموادّ العناية بالبشرة والشعر، وعندما خرج وقد انتعش كثيرًا على أثر هذا الاغتسال المريح، أخرج جوّاله ليلتقط به شبكة الإنترنت الفائقة المتوفّرة بالمنزل، وقام بتحميل تطبيق تحديد اتجاه القبلة، وبعد الوصول إليها انغمس في صلاته التي دامت أكثر من نصفِ ساعة حتّى أدّى كلّ ما فاته، استشعر راحة نفسية كبيرة وقد تخلّص من عبء كان يثقله، فلأوّل مرّة يفوته فرض يعلم أن السفر لا يمنع أداءه، وأخيرًا ارتمى على سريره والحيرةُ تعبث بكلّ أفكاره، ترى ما الذي ينتظره الآن، وبينما تنهمر عليه كلّ الخواطر السيئة، انغمس في نعاسٍ لذيذ غذّاه الفراش الوثير الذي يرقد عليه.

***

الْتهمَ عامر الوجبة الشّهيةَ والثرية بالكثير من صنوف متنوعة من اللحوم التي تمّ طهيها بأكثر من طريقة شهيّة، رائحتها أخّاذة تبعث على الجوع مجدّدًا كلّما اقترب من الشبع، مسحت ماريانا فمَها بمنديلها القماشي وقبَّلت عامر على وجنته وهي تقول له:

- أنتظرُك بأعلى.

ظلّ بصر عامر مشدودًا إليها لا يفارقها وهو مأخوذ على أثر هذه القبلة، ومتتبّعًا لخطواتها ليرى إلى أين ستذهب، ولكنْ خاب ظنّه عندما رآها تغيب باتّجاه بعيدٍ عن مسار غرفته، تنهّد بزفرة حارة لا يدري أهي راحة أم حسرة،

ولكن وجدَ عيني صقر مسلطتيْن عليه بقوّة، ارتبك بقوة وهو يرى جيفيد يلقي إليه هذه النّظرة الصامتة والتي لا يدري ماذا تعني!

إنْ كانت ابنته قد قبّلته أمامه ولم يعترضْ عليها، فحتماً سيتفهّم كلّ ما هو تال!

وأخيرًا نطق الرجل قائلًا:

– ماريانا هي ابنتي الوحيدة، هي السبب المتفرّد الذي يجعلني راغبًا في الحياة، هي نبضاتُ قلبي التي تسير على قدمين، توفّيت أمها أثناء ولادتها، ولهذا ليس لها في الدّنيا سواي كذلك، أحلامها مهما كان شططُها أوامرُ لا تقبل النّقاش بالنسبة لي، عندما رأيت صورتك شاهدت فيكَ الكثير من شيم الرجولة، وأرجوا ألّا تخيب ظني.

تنحنح عامر وقال بتوتر:

– ثقْ أنّي سأحافظ عليها كنفسي تمامًا.

هزّ الرجلة رأسه قائلًا:

– هذا ما أرجوه.

صمتَ هنيهة ثمّ استطرد قائلًا:

– لكما ما شئتما من سفرٍ ومتع وإنفاق وبلا حدود.

انفرجتْ أسارير عامر ولم يسمعْ من بين كلّ ما عدّد الرجل سوى كلمة متع هذه، ولكن قتلها الاستطراد الأخير لجيفيد وهو ممسك بثمرة موز ضخمة، وبحركة سريعة قويّة بسكينه الضّخمة قام بقصف نصفها العلوي ليطير بعيدًا، ومازال النّصف السفلي باقيًا بكفّه قائلًا:

– ولكن إن مسستها لن تعود كما كنت أبدًا.

ارتعدَ عامر بقوّة، وابتلع ريقَه بصعوبة، يبدو أنّ الثقافة السينمائية تختلف عن الواقع بكثير حقًّا.

فقال بتردّد كبير:

– لا تقلق هذه الأمور عندنا من الجرائم الكبيرة في ديننا.

ضاقتْ حدقتا الرجل، ولمح عامر شبح ابتسامة ماتت قبل أن تظهر معالمها، وقال ببطء:

– مِن الرّائع سماعي لذلك.

ثمّ قام بتقشير النّصف المتبقي بيده والتهمه ببطء، وتلذّذ وعيناه لا تفارقان عامر الذي كلّما نظر نحوهما وجدَهما مسلطتيْن عليه فيزداد ارتباكه وهو يتساءل: لمَ هذه النّظرات وماذا تعني؟!

فضّل عامر أن يأخذ بزمام المبادرة، فمسح فمه بسرعة ونهض قائمًا وقائلًا:

– أستأذنك سأصعدُ لغرفتي.

أشار الرجل بيده وهزّ رأسه بإيماءة بسيطة، اندفع عامر مسرعًا، وما إن وصلَ غرفته حتّى أحكم غلقها وهو يخشى أن يلاحقه الرّجل بعد قليل، وقفَ وقد أيقن بأنّه جاء لمغامرةٍ لا طائل منها، هل فقط سيؤجج مشاعرَه بمصاحبة تلك الفاتنة ماريانا ولن يطول منها شيئًا؟!

وترى ما هي حقيقة جيفيد هذا؟ وهل سيمكنه الإفلات منه وهو أسير داخل حصنه؟

أخذ يفكّر كيف يمكنه التفلّت من كلّ ذلك في أقرب فرصة، سيدعي مرضَ أبيه وأنّه يجب عليه العودة سريعًا!

تذكّر أباه الذي أوصاه بضرورة الاتّصال فور الوصول عبر أيّ وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي المتنوعة، وكيف أنه نسيَ تلك الوصية تمامًا، تذكّرها عندما بدأت المصاعب وفكرة الهروب تراوده!

اندفع إلى حاسوبه المحمول ليلحقه بشبكة الإنترنت وقام بفتح الفيس بوك مرسلًا لأبيه أنّه بخير، وكلّ الأمور على ما يرام، لم يأته الردّ منه، ولكنْ من عبير التي أرسلت له رسالة تفوح كلّ أحرفها بأسمى معاني اللّهفة وهي تقول له:

- هل سافرت حقًّا وتركتنا يا مستر عامر؟

لو جاءت هذه الرّسالة أثناء رحلة سفرة الطويلة والمشئومة هذه، لربما تأفّف منها وتجاهلها، ولكن كانت كنسمة هواءٍ ناعمة مست وجهه بلطفٍ وسط قيظٍ قاتم، فردّ عليها وقد استيقظت مشاعره القديمة نحوها قائلًا:

- نعم يا عبير، آسف أنّي لم أخبرك قبلها.

– هل أنت بخير؟

– الحمد لله.

– متى ستعود؟

– لا أدري، أسألك الدعاء.

طالَ صمتها حتّى أنّه قد تشكّك بأنها قد أغلقت، وأخيرا جاء ردّها:

– حاضر.

لم يقرأها بعينيه، وإنّما سمعها بأذني قلبه بنفس نبرتها الهادئة الحالمة الرقيقة.

وأخيرًا ظهر ردّ أبيه الذي اندفع بكلّ لهفة يسأله عن حاله وصلاته ومدى قربه من الله، وأخيرًا اختتم الرجل مقولته قائلًا:

– أتمنى أن يمرّ شهر بعثتك هذه بسرعة وقد نلت فيه أعلى الشهادات، اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا.

توقّف عامر حائرًا، لقد كان يخطط للهروب السريع، ولكن كيف سيبرر لأبيه هذه العودة؟

تنهّد بقوة وقد تغضنت ملامحه بألم وهو بين شقي الرحا، لقد فقدت هذه الرحلة كلّ رحيقها بعد سويعات قليلة من وصوله، كيف يمكنه الاستمرار فيها بلا أذى، وإن لم يستطع فما سبيل الهروب؟!

قطع سيلَ أفكاره طرقات على بابه، ها قد بدأت الأحداث، فترى ماذا يقع خلفَ تلك الطرقات؟

بشحوبٍ وخوف ردّ على الطارق، فإذا بها ماريانا التي لو تقدم طرقها هذا قبل وجبة الغداء لطار به فرحًا، ولكن الآن أصبح مصدرَ رعب له، ترى ماذا تريد منه بغرفته؟

وعندما سألها مباشرة عمّا تريد، كان ردّها السريع الذي أعقبه صوت خطواتها المنطلقة بلا انتظار لردّه بعد أن قالت:

- هيّا استعدّ؛ سنذهب لجولة تسوّق الآن.

***

رغم برودة الجوّ كانت تنطلقُ أمامه بملابسها القصيرة جدًّا، والتي كانت تدفعُه لاختلاس النّظر إلى مفاتنها بين الحين والآخر، مازال هناك رقيب عليه يخجلُ من تطلّعه إليه والإمساك بنظراته اللّصوصية تلك، كان يظنّ سابقًا أنّه يهرب من إمساك بعض البشر به متلبّسًا بمدّ البصر إلى ما لا يحلّ له، ولكنْ هنا، ذلك من المباحات اجتماعيًّا، بل ربما إن لم يفعل لساورتهم الظّنون عنِ انحراف ميوله، أو ربّما تمّ اتّهامه بقلة الذّوق وعدم تقدير الجمال، ومنحه حقّه من الاهتمام، فلمَ لا يطلق العنان لناظريه لينطلقا كيفما شاءا واستلذّا؟!

إنّها الرّقابة الخفيّة التي تربّى عليها، والشعور بالذّنب الذي نشأ عليه إن فعل، وربّما كان هذا هو الحاجزَ الحقيقي بينه وبين الاستجابة السريعة لأفعال ماريانا، ومحاولات تقرّبها إليه، وعيه المترسّخ بكلّ القيم التي زرعها أبوه فيه هو حائط الصدّ القوي بالفعل.

ماريانا طفلة جميلة لا تعرف من الدنيا إلّا الرفاهية والانطلاق بلا حدود، لقد أحبّ فيها ذلك، لا يوجد لديها أيّ تعقيدات، تترك الأمور لتنطلق على سجيّتها، لا تقيم وزنًا لأيّ حسابات مسْبَقة، إن فرحت ضحكت وإن استاءت تبرّمت وغضبت، وظهر عليها وعلى كلّ من حولها آثار ذلك.

بعد أن اكتظّت يداها بحقائبها الكثيرة، ضحكت قائلة:

- لقد كانت رحلة تسوّقنا هذه لأجلك، ولكن لم أستطع مقاومة شراء هذه الموديلات الجديدة.

ما إنْ جاء السّائق ليحمل عنها أثقالها، حتّى اندفعت مع عامر وهي تجذبه من يده ليلاحقها في اندفاعها المتعجّل إلى الأقسام الرجالية، وقامت بنفسها باختيار كلّ ما تريد أنْ تراه عليه، وأخيرًا جلبت له جوّالًا حديثًا يعدّ أرقى ما ظهر، والذي من الخيال حصوله عليه لو كان بمصر مقابل ثمنه الباهظ جدًّا!

وأصرّت ماريانا على عدم العودة بملابسه البالية من وجهة نظرها، وعندما ذهب لتغييرها بالجديدة ذات الألوان الزاهية، عاد إليها لتصفق بيديها في جزل وهي تتقافز قائلة:

- واااو! إنّها رائعة عليك بالفعل كما توقّعت لها تمامًا.

مدّ يده ليلتقط منها جوّاله القديم، فقالت بأنّها قد ألقته في سلة المهْملات، فلا حاجة إليه مع الجديد الحديث الذي جلبته إليه.

أمسك بالجديد وهو غيرُ قادر على الاستنكار، أو حتّى ذكر حاجته إلى ما يحتفظ به على ذاكرة الفقيد!

يبدو أنّ ماريانا تجرّده ببطء وتدريجيًّا من كلّ قديمه الذي تربّى عليه، ولكنْ عندما نظرَ إلى نفسه بالمرآة كانت صورته مختلفة تمامًا عن النّمطية السابقة، لقد تحوّل كأنّما قد وُلد من جديد بالفعل، دفع بجواله إلى ماريانا طالبًا منها التقاط صورته في أولى لحظات حياته الجديدة ومع أوّل تغيير حقيقي له، فجاءت إليه لتعانقه بذراعها الأيسر وتمدّ يمناها بجوّاله لتلتقط صورةً سيلفي لهما وهي متّسعة العينين في مشاكسة، وتخرج لسانَها بأكمله، وهو مازال بادٍ عليه الحرج من الحبْو إليها.

***

أخذ جيفيد يتطلّع إلى ملبس عامر الزاهي بابتسامة غامضة حار الأخير في تفسيرها، واندفعت ماريانا لتقبّل أباها بفرحة وهي تتقافز منطلقة إلى لعبتها التي لم تحاول دعوةَ عامر إليها حتّى الآن!

في حين جلس عامر برفقة الأب الذي لا يدري له عملًا سوى المكث بالمنزل هكذا.

مِن أين جاء كلّ هذا الثراء؟ أم تراه حصدَ كلّ هذا النعيم في رحلة شاقة ثمّ قرّر التقلب في رغدائه ما بقي له من حياة قصيرة لا تستحقّ عنتًا أكثر من ذلك؟

ولكن أيّ متعة هذه التي تأتي من ملازمته لمقعده الوثير فقط؟!

نطقَ عامر ببعض الكلمات المتلعثمة تعبيرًا عن شكره، وأنّ ما أنفقته ماريانا لأجله كثيرًا، ولا يستطيع الردّ بمثله.

نظر الرجل له مليًّا وقال:

– لقد قلتَ لي جُملة مازالت تدور في بالي كطفلة مدلّلة تتسلق كلّ ثنايا مخّي.

اتّسعت عينا عامر في تساؤل، وقال بتردّد:

– ما هي؟

– عندما قلت بأنّ دينكم يجرّم أخلاقيًّا العبث الجسدي.

اشتعلت حماسة عامر، وقد هزّه الفرح بأنّ جملة واحدة نطق بها أصبحت إنجازًا دينيًّا!

لقد كان يخشى هذا الرجل ومن انحرافه، فهل سيعود من رحلته محمّلًا بدعوته إلى الاسلام بدلًا من حقيبته التي كانت ستحوي الكثير من الموبقات؟!

زالَ من داخله شعورُه الآثم الملاصق له منذ خروجه من منزله، وقال:

– نعم، فقد نهانا الله في كتابه الكريم عن مجرّد الاقتراب منه، وليس فقط الوقوع فيه، وهذا يعني النّهي عن تلمس كلّ المقدّمات التي تؤدي إليه.

هزّ الرجل رأسه ومازال الغموض يلفّه وقال:

– هل كان عندكم بمصر بطلٌ تاريخيّ من أهل مكة؟

نطق عامر بفرحة وحماس قائلًا:

- نعم كان بها الكثير، ولكن أشهرهم كان القائد الفعلي للحملة التي قامت بفتح مصر، إنّه القائد عمرو بن العاص.

لمعت عينا جيفيد بقوّة، ومازال محافظًا على حواره الذي ينطلق كلّ سؤال فيه بما لا يرتبط مع سابقه قائلًا:

- هل معك نسخة من كتابك المقدّس هذا؟

تردّد عامر وهو لا يدري هل يمكنه منحه النّسخة التي حاول التخلص منها أم لا، ولكن بعد كلّ ما حدث معه لا يمكنه الرفض، وقد تكون هي مقدّمات هداية هذا الرجل بالفعل، ولكن كيف وهي نسخة عربية حتمًا لن يفقه منها حرفًا، فما حاجته إليها؟ هل الأفضل أن ينكر وجودها معه؟

ولكنْ ما أدراه بأنّ الرجل يطلب ذلك لأنه سبقه بتفتيش حقيبته أثناء غيابه وعلمه بما فيها؟

ربّما يختبر صدقه، لذا لن يكذبه حتّى لا يقع في عواقب ذلك، فردّ بتردّد قائلًا:

- نعم معي نسخة عربية منه.

عادتْ لمعة عيني الرجل مرّة أخرى قائلًا:

- هل يمكنني رؤيتها؟

استأذنه عامر لينطلق صاعدًا، وماريانا على مرأى منه منغمسة في ألعابها وقد غابت عن الوجود تمامًا، عاد ليشير بالمصحف أمام الرجل عاجزًا عن منحه إيّاه لتذكّره الفتوى التي تمنع ذلك!

ولكن مدّ الرجل يدَه ليستخلصها من كفّ عامر وقام بأغرب ردّ فعل لم يتوقّعه الأخير أبدًا، فقد أخذ يتشمّمها بعمق، وفتح المصحف ويكاد عامر أن يقسم بأنّه رأى لمعةَ دمعة كرأس دبّوس بللوري في زاوية عينه اليمنى، وبعد تقليب الصّفحات حينًا أعادها إليه وهو يقول بامتنان:

– حافظ على كتابك المقدس قدْرَ استطاعتك.

اهتزّ وجدان عامر، فما خطر بباله أنْ تأتيه النصيحة بالمحافظة على القرآن الكريم هنا! ومن هذا الرّجل تحديدًا، ورغم مخالفة ذلك لاعتقاده إلّا أنّه قال له:

– يمكنك الاحتفاظ به كهدية مني لك.

علا البِشْر محيّا الرجل، وقال بفرحة طفولية لم يستطع كتمانها:

– حقًّا؟!

هزّ عامر رأسه مبتسمًا، قائلًا:

– بالطّبع.

ازدادت قبضة الرجل على المصحف قوّة، وقال:

– لقد منحتني الكثير بذلك يا فتى، ولهذا سأعوّضك عنه.

شعرَ عامر بالحبور، يبدو أنّ هداية هذا الرجل ستكون على يديه بالفعل، أحسّ براحة نفسية كبرى تعتريه وهو يتخلّص من كلّ دنس شعوري، لقد أصبح حاملًا لمسئولية البحث عن طريقةٍ فعليّة يصل بها إلى قلب هذا الرجل؛ ليعبر به إلى برّ الأمان على حسب اعتقاده، لربما فازَ بخيري الدّنيا والآخرة، ثواب هداية الرجل وربّما ابنته فيما بعد، ثمّ زواجه بهذه الفاتنة واستقراره معهما هنا ليرفل بقية حياته وسط نعيم دنيويّ كبير يأمل أن يستمرّ كذلك في المآل الأخروي.

وبينما عامر يسبح وسطَ خيالاته أنهى الرجل مكالمته السريعة ونادى على ماريانا التي اسْتفاقت من عوالمها اللاهية، وجاءت إليه لتطوق عنقه بذراعها لتسائله عمّا يريد، فإذا به يخبرها هي وعامر أن يستعدّا لرحلة الغد فقد قام بحجز غرفتيْن بأكبر فنادق مدينة قرطاجنة الساحلية ليقضيَا بها ما شاءا هناك!

***

انطلق السّائق جورمان بالسيارة ذات الدّفع الرباعي في رحلة طويلة تقارب السّاعات الستّ محتفظًا بصمته وسكونه وغموضه، بينما أخذت ماريانا تمازحُ عامر أغلب الوقت، ويداها تطوّلانه بضربات رقيقة أو هزّلية أو إمساك بخدّه بين أصابعها الناعمة، وأخيرًا توافقا على لعبة عبر جوّاليهما انغمسا فيها سويًّا في صراع التَهَم أغلب الطريق دون أن يشعرا بمرور الوقت، ورغم أنّ عامر فضّل السفر البري رغبة منه في الاستمتاع بمشاهدة المعالم والطبيعة الساحرة التي ستشهدها عيناه للمرّة الأولى، ولكن ماريانا استحوذت عليه فلم ينعمْ بذلك إلّا عند سقوط رأسها على كتفه وقد ذهبت

في غياهب النوم، بينما سرح هو ببصره إلى اللّون الأخضر السائد على مدّ البصر أينما توجّهت عيناه، كان يتعجّب لخصوبة هذه الأرض الفائقة، ولأوّل مرّة شعر برغبة في معرفة التاريخ القديم لهذه المنطقة، وعبر شبكة الإنترنت بجوّاله الفائق أخذ يطالع ما أذهله!

فحضارةُ هذه البلاد تصل إلى عشرة آلاف عام قبل الميلاد، آنذاك كانت التجمّعات البشرية البدائية حول مدينة بوجوتا العاصمة الحالية، وبالطبع كان لها نظام حكمها القبائلي لما نسمّيهم بالهنود الحمر والمتصاعد هرميًّا، كانت تزدهر بينهم تجارة المحاصيل الزراعية والذّهب وبقية الأحجار الكريمة، حتّى جاءهم الاحتلال الأسباني عام ١٥٠٠ ميلادية ليغير كلّ شيء بعنف غير مسبوق.

يقول الأب لاسكازاس في مذكراته:

(كانت هذه الأرض تعجّ بالحياة والبشر كأنها خلايا النحل، حتّى ليخيل إلى المرء أنّ الله أحلّ فيها أكبر عددٍ ممكن من البشر، خلق الله هذه الشّعوب الغفيرة رضيّة لا تعرف الشّر والرياء، إنها شعوب طيّعة بالغة الوفاء لأسيادها الطبيعيّين، لا تعرف الضّغينة ولا الصّخب والعنف والخصام، شعوب تجهل الحقد وسوء الطويّة، وتعفّ عن الثأر والانتقام)

وفي فقرة أخرى كتب يقول:

(لقد غشي الأسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنمور والأسود الوحشية التي لم تجدْ طعامها أيامًا وأيام، ومنذ أربعين سنة وهم

يقطعون أوصالهم ويقتلونها ويروّعونها، ومنذ أربعين سنة وهُم يفتكون بها ويعذّبونها ويبيدونها، كلّ يوم فظاعة جديدة غريبة مختلفة لم نسمع ولم نقرأ عن مثلها من قبل، كانت هذه الفظائع شديدة لم تبقِ في الجزيرة الأسبانية اليوم سوى مائتي هندي من أصل ثلاثة ملايين)

لقد جاء الأسبان لهذه البلاد طمعًا في ذهبها، ولكن ارتكبوا في سبيل ذلك من مذابح الإبادة الجماعية ما يشيب لهوْله الولدان!

لم يستطعْ عامر أن يستكمل قراءة ما وصفه الكاتب عن تلك الصنوف من العذاب التي تأباها الوحوش الضارية.

فذهب مباشرة الى موقع آخر ليقرأ فقط التحوّلات والتغيرات التاريخية التي مرّت بها، فوجد أنّه بعد استقرار الحكم الأسباني في تلك الأراضي قاموا بتأسيس مدينتي غرناطة الجديدة وقرطاجنة، تلك الأخيرة التي يشدّ الرّحال إليها الآن، وظلت موانئ قرطاجنة المطلة على البحر الكاريبي هي مصدرَ تحميل السفن بالذهب المنهوب والمبحر إلى أسبانيا، ولهذا كانت مطمعًا للجميع، وتحت نيْر هجمات القراصنة بشكل مستمرّ، وشهدت موانيها أكبر هزيمة للبحرية البريطانية في المعركة التي احتدمت بينهم وبين القوات الأسبانية المترسة خلف تحصيناتها عام ١٧٤١ ميلادية، ولتاريخها الكبير هذا أدرجت منظمة اليونيسكو هذه المدينة كموقع للتراث الإنساني العالمي.

اكتفى عامر بما قرأ على عجالة، وقد جال بخاطره أن هذا العالم يحوي الكثير ممّا نجهله، فنحن أسرى لنظرتنا القصيرة ومشاكلنا البسيطة، التي ندور في فلكها ونظنّها هي محور الكون!

أرخى رأسه للخلف وقد أمالها جهة اليمين ليتطلّع عبر النافذة إلى سحر الطّبيعة الرباني، وهو يتساءل: ترى ماذا شهدت هذه التربة من أحداث ومعارك وصراعات لبشرٍ ينهشون بعضهم بعضًا؟!

وبالرّغم من ذلك ظلّت عبر ألوف السنين تنبت لهم الخير والنقاء وهذه المشاهد الخلابة التي لا تملّ من جمالها الأعين أبدًا.

انتابته سِنةٌ من النوم، ولكنِ استيقظ فزعًا ومنتفضًا عندما هزته ماريانا بقوّة، وصرختها تكاد تصمّ أذنيه.

***

كان عامر يغوص بمقعده الوثير في ساحة الفندق الضخم المتصف بكلّ آيات الفخامة عاقدًا حاجبيه والضيقُ يقتل الكثير من انبهاره المتوجّب لهذا الفندق الذي ظن أنّ مثله لن يكون إلّا في أمريكا الشّمالية وفقط.

ضربت ماريانا على كتفه، وضحكت بقوّة وهي تقول:

– أمازلت غاضبًا؟

تنهّد بضيق وقال:

– هل يصحّ ما فعلت؟!

- لا بأس ببعض المرح، فما جئنا هنا إلّا لأجل ذلك.

- هل إيقاظي من النوم مرتعبًا هكذا يعدّ مرحًا؟

عقدت حاجبيها الجميليْن وقالت بمشاكسة:

- هل كنت مرتعبًا لأجلي حقًّا؟

بمنتهى الجدية قال:

- بالطّبع، فأنت تحت مسئوليتي الآن، وحمايتك هي واجبي الأول.

ارتبكت وتردّدت، ولكن لمعت عيناها وقالت:

- هل حقًّا ما تقول؟

قطعَ عليهم الحديث مجيء جورمان وبيده البطاقات الإليكترونية الممغْنطة الخاصّة بفتح أبواب الغرف، رغمًا عنه حصد عامر عددَ الكروت فوجدها ثلاثًا، فتيقّن بأن جيفيد ما زال يحاصره رغم غيابه، وأنّ هذا الوحش الواقف أمامه بشاربه لانهائي الشّعيرات حتمًا مكلف باستكمال الرقابة عليه، نازعه نفس الإحساس المتضارب، فالراحة والحسرة مازالتا تتعاركان داخل صدره، ابتسم رغمًا عنه وهو يتذكر أن ذلك ربما بدعوةٍ مخلصة من والده بأنْ يحفظه من سوء الفتن ما ظهر منها وما بطن، أدرك عامر الآن بُعدًا جديدًا للطاعة كان يغيب عنه بالفعل، أيقن أنّه لا يُعد من القدّيسين لمجرد عدم وقوعه في الذنوب أو الفتن، بل القوّة الحقيقية تكمن في تعرضه لها؛ فيكون بالقوة التي تدفعه للإفلات من براثنها، هل لهذا كانت الأوامر جليّة

منه سبحانه بأن يكونَ الابتعاد ليس عن الشيطان نفسه، وإنّما عن خطواته وخيوطه وجميع إغراءاته التي يبرع في تزيينها، ولهذا يشعر عامر بالراحة، لقد جاءت معوّقات كثيرة تمنع عنه المعاصي الكبرى، وبالطبع يقع منه الأسى والحسرة أن يكون متقلّبًا بين كلّ تلك المغريات المباحة في مجتمعاتها، ولا يطول منها شيئًا، ولكن أيّ منحدر وقع فيه الآن؟

هل أصبح مجرّد نجاته من الكبائر فقط هي أفضل الطاعات، وبهذا يُعدّ من الصالحين المقرّبين!

قطعَ عليه أفكاره امتدادُ يدِ الرجل إليه بالبطاقة المخصّصة له، فتناولها وسار برفقة كتلةِ الفتنة النابضة وهي تطالبه بأن يكون مستعدًّا للنزول إلى الشّاطئ بعد نصف السّاعة فقط، همّ أن يطالبها ببعض الراحة، ولكنّ اعتيادها على الأوامر غير قابلة النّقاش لم يدعْ له فرصة التصريح بحرف ممّا يريد، فقد انطلقت بمنتهى الحيويّة والسرعة نحو غرفتها، فما كان منه إلّا التوجّه نحو غرفته وهو يرمق جورمان المحتفظ بنظرته الصّامتة والغامضة، لو ينطق هذا الصنم آليّ الحركة لأفصح بالكثير عن ملامح شخصيته، ولكن سكونه هذا يزيده هيبةً فوق غموضه، مما يدفع عامرًا لمزيد من خشيته والتوجّس منه، بمنتهى الدقّة وبعد ثلاثين دقيقة كان عامر ينتظر بقاعةِ استقبال الفندق، وعيناه تجولان يمينًا ويسارًا وقد بدأتا في التجرّؤ والبحث عن المفاتن التي كان يتوجّس منها سابقًا، كان يطوف ببصره أينما توجّه ليقطف قطفات سريعة دون مد البصر أكثرَ من خمس ثوان، فمازال متلبّسًا بالخشية من الإمساك به مطلِقًا عينيه إلى ما لا يملك.

وأخيرًا ظهرت أميرته متألّقة بثوبها الذي لا يدري متى حصلت عليه، فحتمًا هو حديث الشّراء، فمثلها قد لا ترتدي شيئًا مرّتين أبدًا!

ظهرت متأخّرة ساعة كاملة، ولكن لا يمكنه لومها أبدًا على ذلك.

يذكر ذات يوم عندما جاءت عبير إلى حصّة التقوية في اللغة الإنجلزية، كانت متأخّرة خمس دقائق، تذمّر وزاد في لومها، مع الكثير من الحديث الوعظي عن قيمة الوقت وقيمة الملتزمين بدقّة مواعيدهم، هي نفس الأنثى التي خلقها الله، لمَ غابَ عنه التذمر والضيق هنا، بينما هناك لم يمنحْ أيّ فرصة لالتماس العذر رغم وجود كلّ مسبباته القوية والهادرة؟!

كادَ عامر يقهقه وهو يرى جورمان يرتدي زيًّا صيفيًّا قصير الأكمام وأعلى فخذيه، فقد كانت صورة كاريكاتورية متناقضة تمامًا، وقبل أن ينطقَ عامر بحرف أشارت ماريانا بأطراف أصابعها ليتبعها، فنهض لينطلق خلفها بصحبة جورمان بخرسِه الدّائم، والذي تسلم مقود السّيارة منطلقًا بها نحو وجهة يبدو أنّه يعلمها مسبقًا، وعلى الشاطئ العامر النّظيف المنظم والراقي كانت مظلّةٌ كبيرة تنتظرهم وأسفلها الكراسي الممتدّة بشكل أفقي لوضع الاستلقاء الكامل بما يشبه السّرير، وبجوار كلّ واحد منهما مائدة صغيرة يتراصّ فوقها بعض المشروبات الغازية والكحولية، تجرّدت ماريانا من ثوبها الأنيق لتبقى بلباس البحر، والذي تراه العين المجرّدة بصعوبة!

همّ عامر أن يلتهم ما ظهرَ منها، ولكن بلمحة جانبية وجد جورمان يحدّق نحوه بقوّة، فارتعد رغمًا عنه وأشاح ببصره نحو الأمام، ليجد من يماثلنها كثيرات!

ولكنْ تبقّت هي غايته التي يصبو إليها طالما هناك معوقات في سبيل نيلها.

انغمست ماريانا في الكتابة على جوّالها وحاجباها الجميلان ينعقدان وينفكّان كثيرًا تفاعلًا مع ما يظهر أمامها، والذي يتمنّى عامر أن يعلم مع من وعنْ أيّ شيء تتحدث؟!

نظر نحو جورمان وسأله:

– متى سننزل إلى البحر؟

أشار جورمان بيده نحو البحر بمياهه شديدة الزّرقة والرائقة دون أن ينطقَ في جملة بليغة جدًّا لا تحوي حرفًا، فهمَ أنّه لديه الشاطئ فليفعل ما يريد!

ولكن ماذا عنه وعن ماريانا، هل جاءا لأجل المشروبات والعبث بالجوّال فقط! لقد كان ذلك متاحًا في ألف مكان غير الشّاط، فما هي المتعة الزائدة هنا إن لم يسبحْ ويلامس ويلاطم الأمواج؟!

همّ أن يسألها إن كانت ستصحبه إلى البحر طالما أنّها الآن مستعدة له بلباسه، ولكنّها نهضت فجأة وبسرعة وقالت:

– سوف أعود بعد عدّة دقائق.

وقبل أن يسألها عن وجهتها، كانت قد انطلقت مسرعة وهي تكتب شيئًا ما على جوّالها، لم تكن وجهتها نحو الشاطئ، وإنّما اتجاهًا معاكسًا للناحية التي أتوا منها، نظر عامر نحو جورمان ليسأله بلغته الصّامتة عمّا سيفعل وهل سيتركها هكذا؟

ولكنّ جورمان استرخى على كرسيّه بمنتهى الأريحية وضبط وضع نظارته السّوداء فوق عينيه، في ردّ صريح بأنّه لا دخل له في ذلك.

حسنًا إن كان جدار الحماية الصّلب لها يرى بأنها لا ضير ممّا تندفع نحوه فلمَ يهتمّ عامر؟

مدّ يده ليتناول أحد المشروبات الغازية ذات الماركة العالمية المعروفة، واسترخى بدوره فوق كرسيه وهو يرشف منه رشفات وعيناه بدأت رحلة قنص المفاتن الهادرة أمامه!

أنهى عامر مشروبه، فأخرج جوّاله وفتح تطبيق مراسلات الفيس بوك ليجد رسالةً من عبير تسأل عن حاله ومتى سيعود، رغم تناقض ما داخل شاشة الجوّال عمّا خارجها بشكل صارخ إلّا أنّ عامر أحب سؤالها المهتمّ به، فردّ عليها مسلماً وسائلًا عنها وعن أمّها، فإذا بها ترد عليه في التوّ كأنما كانت بانتظاره، فأخذ يسألها عن نتيجة الامتحانات ومتى هي، وإذا بها تقول له بفرحة:

– لقد التقطتُ صورة جيدة جدًّا استعدادًا للالتحاق بالكلية، هل تريد أن تراها؟

مشفقًا بها طالبها بالإرسال، كانت صورة بحجابها الملون وملامحها البسيطة الهادئة، وقبل أن يردّ عليها، إذا بكتلةٍ فتنة صارخة تنحني وهي تبتسم وتسأله إن كان يوافق على أن تشاركه الشراب، نطقت جملتها ويدُها تمتدّ بتلقائية نحو إحدى الكحوليات بجواره، انعقد لسان عامر بقوّة،

وهو يهزّ رأسه بآلية على موافقته غير قابلة النقاش، ونظر نحو جورمان الذي رفع ناظرته، وغمز له بإحدى عينيه ثمّ أعاد الناظرة مرّة أخرى، ارتبك عامر وهو لا يدري ما الذي يجب عليه فعله في هذا الموقف، أتاه صوتُ وصول رسالة من عبير وهي تسأله عن رأيه في صورتها.

عن أيّ صورة تتحدّث عبير الآن وهو الذي تتجسّد أمامه إحدى أعظم صور الجمال الصّافي متجرّدة من كلّ ما يسترها، جاءه تنبيه آخر وهي تقول:

- ألم تعجبك؟

مشفقًا عليها وحتى لا يكسر ثقتها بنفسها ردّ عليها مسرعًا بأنها صورة رائعة، كان انشغاله بالردّ على عبير ولو بلمح البصر إهانةً لآية السحر الماثلة أمامه، وبلا استئذان مدّت يدها تعدل شاشة الجوّال لترى ما بها، فإذا بصورة عبير الهادئة الوقورة المحتشمة أمامها، فاعتدلت في وقفتها وهي تهزّ رأسها بتفهّم، وشكرت عامر على المشروب الذي صحبته، وانصرفت.

ارتبك عامر بقوّة وهو لا يدري ماذا فقد الآن، الأمور تتصاعد بقوة وسرعة عجيبة!

منذ قليل كان يحمد الله أنّ هناك شبكة كبيرة حوله تحجب عنه الانزلاق السريع نحو الخطايا الكبرى، ولكن بدأ هذا الشعور في الانسحاب وهو يرى بأنّه الآن قد فاتته فرصة ثمينة ضيّعها بغباء منه!

أتاه سؤال عبير عن لون ملبسها وهل هو مناسب ومتوافق أم لا، همّ أن يسبّها، ولكن.. صمتَ قليلًا وأغلق عينيه وهو يتفكّر بهدوء،

لا توجد صدفٌ متتابعة بهذه الكثافة، إنّها رسائل حماية له تكاد تذهب عنه، فماذا سيحدث إذا ما تُرك لنفسه الأمّارة بالسوء؟

حتمًا سيقع في مستنقع كبير لا فكاك منه، لقد راوده مخطط السعي للزّواج بماريانا والتي حتمًا ستعصمه بما تملك من جمال وفتنة فائقين، وقد يكون هو سببًا في هدايتها هي وأبيها، وبهذا ينال خيري الدنيا والآخرة!

إذًا فليكن تركيزُه على هذا الهدف، ولكن هل يمكنه تحمل أن تنطلق زوجته بملبس أطلقَ عليه خطأ لقب أنّه ملبس لتلتهمها العيون، هل سيصبح ديوثًا لهذه الدرجة؟!

بالطّبع لا، ستتغيّر الأمور لو تمّت هذه الزيجة وسيكون هناك تفاهم على الحدّ الأدنى للتوافق بين الثقافتين، ولكن لماذا تأخرت كلّ هذه المدّة؟!

كتب لعبير جملة يعتذر ويستأذن منها لعمل هامّ طارئ لديه الآن،

نظرَ نحو جورمان فبدا كأنّما هو مستغرق في نوم عميق، فنهض لينطلق إلى الاتجاه الذي سلكته، وأثناء مسيره حاول بصعوبة تفادي أكوام اللّحم المقتحمة لكامل مجاله البصري!

وأخيرًا، وجدها ولكن في مشهد حطّم كلّ آماله وأحلامه التي كان يسبح فيها منذ قليل، فقد كانت في أحضان شابّ وهُما تقريبًا شبه عارييْن تمامًا، اشتعلت كلّ براكين الغضب الكامنة بداخل عامر، وبلا ذرّة تفكير وبردٍّ فعل لا يدري مبعثه مدّ يده ليجذبها من معصمها بقوّة آلمتها، فصرخت عاليًا وهي تنظر نحوه بدهشة، وبعينين غاضبتين هتف به الشّاب بقوّة سائلًا إيّاه عمّن هو، وماذا فعل للتّو؟

كانت حممُ البراكين التي انطلقت من عقالها تحجب الرؤية وكل مقومات التفكير العقلاني عن عامر؛ لذا وبلا تردّد وبشكل تلقائي وبقبضة يده المضمومة لكمَ الشابّ بقوّة هادرة ألقته أرضًا ليندفع شلّال الدّم من أنفه، والشاب يسبّ ويلعن إيّاه، اندفع ثلاثة من الحراس الشّخصيّين نحو ساحة المعركة التي التفّ الجميع حولها مشاهدين ومسجّلين الحادث بجوّالاتهم، مال أحدهم نحو الشّاب ليسعفه واندفع الآخرون نحو عامر بعضلاتٍ مفتولة وصدور عريضة هاتفت عامر بأنه مقضيّ عليه حتمًا، وبينما خيوط التعقّل بدأت في العودة إلى نسيجها الطبيعي لتخبر عامرا بأنّ أيّ مواجهة الآن ستكون وبالًا عليه، ولكن كيف يمكنه تفاديها وهُما قاب قوسين أو أدنى الآن منه والشرر يتقاذف من أعينهما، وحتمًا لن يوقفهما شيء.

ولكن اندفع صوتٌ كان كأجمل وأرقّ وأروع سيمفونية يمكن أن يسمعها عامر الآن، فقد كان صوت جورمان وهو يهتف بهما ليتوقّفا، وهذا ما أوقفهما بالفعل، ودار حديث غاضبٌ بينهما دفع جورمان لأنْ يهجر صمتَه المقدس وهو يقفُ حاجزًا منيعًا بين عامر وتلك الوحوش الآدمية مدافعًا عنه، ومخبرًا إيّاهم بأنّه حبيب ماريانا الجديد ومن حقّه الغضب لما رأى، نظر عامر نحو ماريانا ليرى ردّ فعلها نحو هذا المقال، وإذا بها تفاجئه بأغرب ما كان يتوقّع، فقد لثمتْ خدّه بقُبلة وهي تقول له:

– أنا آسفة.

وقبلَ أن يفيق من أثر تلك المفاجأة التي لا يفهم مغزاها أو الباعث إليها، أمسكت بكفّه لتسحبه منطلقة به وهي تلقي بنظرة غريبة نحو الشّاب الذي كانت في أحضانه منذ قليل، ممّا دفع عامر لأنْ يلقي ببصره نحوه كذلك ليرى ما ردّ فعله لما يرى الآن، وإذا به قد ترك أنفه ينزفُ وعينيه متّسعتيْن في دهشةٍ وغضب لا حدّ لهما.

كانت ماريانا تسير بجواره وهي تتقافز بسعادة لا حدّ لها، ونظرت نحو عامر وهي تقول له بشجن عجيب:

- أنت رائعٌ جدًّا، لقد حقّقت أفضل ممّا حلمت به بكثير.

مازالت الدهشة تغتال كلّ مشاعر عامر، وتعجزه عن التفكير المنطقي السّليم، هناك شيء غامضٌ يغيب عنه هو المفسّر الحقيقي لكل ما يدور الآن، ليس منطقيًّا أنها أعجبت به وهامتْ في حبّه فجأة بسبب موقفه الرّجولي وضربه لذاك الشابّ الذي كانت في أحضانه حتماً برضاها ورغبتها!

يهمّه الآن الانصراف من شاطئ الغرام العجيب هذا، فقال لها:

- هل يمكننا العودة الآن إلى الفندق؟

- بالطّبع، لم يعد هناك داع لبقائنا هنا.

لحقَ بهما جورمان وبنفس صمته المقدّس جلس خلف مقود السيارة وانطلق بها برعونةٍ وسرعة بثّت خوفًا ورعبًا بنفس عامر، فلن ينطلق جورمان هكذا إلّا في حالة أنْ راوده دافع قويّ للهرب من خطر يلاحقه!

وفي الفندق نطق جورمان بجُملته الموجزة قائلًا لعامر:

- لا تغادر غرفتك مهْما حدث.

هزّ عامر رأسه موافقًا، ونظر نحو ماريانا التي مازالت تهمس في جوالها وأقصى آيات السّعادة مرسومة على ملامح وجهها، ولم تلتفت لجورمان الذي أشار اليها لتصعدَ لأعلى، فنظرت نحوه ودون أن ترفع الجوال عن أذنها أو تتوقّف عن الهمس انطلقت باتجاه غرفتها، تردّد عامر وهمّ أن يسأل جورمان عن الموقف وتداعياته، ولكنّ نظرة الأخير الصارمة قتلتْ كلّ أسئلته في مهْدها، فانطلق باتجاه غرفته وهو يتلفت حوله ويظنّ بأنّ مهاجمًا قد يظهر له من أيّ اتّجاه، ولا يدري عاقبة ما فعل على الشّاطئ، ترى هل سيقعُ في قبضة الشرطة بعد قليل؟ أم أن هذا الشّاب سيأتي بنفسه لينتقمَ من كرامته المهدرة بعد أن يكبّله رجاله وحرّاسه مفتولي العضلات؟

وفي غرفته التي أخذ يزرعها ذهابًا وإيابًا لم يعد يشغله ولا يلحظ أيًّا من مظاهر الرفاهية التي كان يتوقّف عندها كثيرًا ويحاول التشبع منها سابقًا!

وبعد ساعة ونصف إذا بجورمان يقف على باب غرفته بعد أن استجاب عامر لطرِقه العنيف، وقبل أن ينطق الأخير عاجله جورمان بجُملة تعدّ هي الأطول منذُ رآه للمرّة الأولى حين خروجه من المطار:

- يجب أن نترك هذه المدينة الآن، لم يعدْ من الأمان لك البقاء فيها بعدما فعلت بوليد أحدِ الكبار، اليوتيوب حقّق مشاهدات كثيفة لما فعلت.

صفّقت ماريانا بجزل من ورائه وهي تقول:

- رائع جدًّا.

أدركَ عامر الآن أنّه في خطر حقيقي، فالموقف لم يكن صبيانيًّا سريعًا يمكن تجاوزه، يبدو أنّ صراع العصابات والكبار هنا حقيقة فعلية لن ينجو منها، ماذا سيفعل به والدُ هذا الشاب الذي ضربه وفضحه على رؤوس الأشهاد؟ بل وانتزعَ من بين أحضانه فتاته التي اصطادها، حتمًا هذه إهانة يلزمها مزيدٌ من الدماء ليستردّ كرامته المهدرة!

الهروب الآن خيرُ خيار بالفعل؛ لذا بعد ربع الساعة فقط كانت تنطلق بهما السيارة في طريق العودة الذي لم ترتحْ منه بعد!

كانت ماريانا تحاول الحديثَ مع عامر ولكن التّوتر والقلق ينالان منه، فطلبتْ من جورمان أن يعطيه بعضًا من مشروبه المفضّل ليهدّئ من أعصابه قليلًا، فتح الأخير درجًا بجواره ومنحه إحدى المعلبات، سأله عامر عمّا بها، فقال له:

- إنّه مشروب مُعدّ من إحدى النباتات النادرة يريح الأعصاب بدرجة كبيرة.

- هل بها أيّ مشتقّ للكحوليات؟

- لا على الإطلاق، يمكنك قراءة ما بها على جانب العلبة.

وعندما تيقّن عامر من خلوّها ممّا يخشاه تناوله مباشرة، فقد كان في حاجةٍ إليه بالفعل، وفي خلال دقائق شعر بجسده يرتخي وجفناه يتثاقلان، وذهب في سباتٍ عميق.

***

صداعٌ عنيف ينتابه يشعرُ معه بأنّ رأسه تكاد تنسحق للداخل، كأنما هي بين دفّتي تلك الأداة العملاقة لسحقِ مخلّفات السيارات المعدنية، فتح عينيه بصعوبة والضّوءُ البسيط الذي ينسابُ إليهما يغشاه بقوّة تزيد من حدّة الصداع، هزّ رأسه ببطء وهو يحاول تذكّر آخرَ أحداث حياته التي مرّت به قبل أن يلتهمه هذا الصّداع، اكتمل مجاله البصري بوضوح ليجدَ نفسه داخل السّيارة ذات الدّفع الرباعي، ولكن في مشهد عجيب، فبابُها الأمامي المجاور للسّائق مفتوح للخارج ويوجد بعض الدّماء على المقعد، ومن خلال الباب المفتوح والنوافذ المجاورة له عادتْ إليه ذكرى هذا الطريق المُحاط بالأشجار الكثيفة على الجانبين، لقد كان على سفرٍ به مع سائق كثّ الشّارب ودائم الصمت والغموض، نعم إنّه جورمان، وكانت معه تلك الفتاة الفاتنة ماريانا!

انتفضَ عامر عندما جاءته ذكرى ماريانا، وانتبهت ذاكراته وخلايا مخّه لحدّهم الأقصى، أين ماريانا وجورمان وما هذه الدّماء؟!

هبط من السيارة ليجدها تقف بشكل يوحي بأنها قد توقّفت على جانب الطريق عنوة، نظر حوله عسى أن يرصدَ أيّ شكل للحياة أو يجد من يسائله عمّا حدث، ولم يجد.

يبدو أنّ السيارة قد هوجمت وأصيب جورمان وتمّ اختطاف ماريانا، ارتعدَ لهذا الخاطر، حتماً هناك تفسير آخر!

ولكن ما حدث عند الشاطئ يبدو أنّه قد نال بقوّة من ذلك الشاب وأسرته، وتمّ الانتقام له بسرعة وقوّة، ولكن.. لقد كان هو صاحب تلك القبضة التي نالت من الشّاب، لمَ لمْ يمسه سوء؟!

هل كان نومُه العميق القوي موحيًا بأنّه فاقدٌ للوعي أو مفارقٌ للحياة؟!

أو ربّما كان الهدف خطف ماريانا فقط، وطاردهم جورمان رغم إصابته وحتماً تمّ قتله الآن.

ولكن متى حدث هذا؟

نظرَ إلى ساعته ليجد أنه قد انغمس في النوم أو فقدان الوعي لمدّة تزيد عن السّاعات الثلاث، قد يكون حادث الاختطاف في أوّله وفات وقت كبير، أو ربّما منذ دقائق قليلة ويجب عليه الانتظار فقد يظهر جورمان نازفًا وطالبًا للمساعدة، ماذا لو كانت ظنونُه صحيحة وقد تمّ التخلص بالقتل من جورمان وربّما ماريانا نفسها؟!

حتماً سيمزّقه جيفيد شرّ ممزّق، لقد قالها له بمنتهى الصراحة أنها هي كلّ حياته ومَن يمسّها بسوء سوف يمحوه من فوق ظهر الأرض!

ولكنْ ما ذنبه لقد كان في غياهب النّوم، ولكن ترى هل سيصدقه جيفيد؟

مرّت ساعة كاملة تتقاذفه الظّنون والتساؤلات ولا يدري ماذا يجب عليه أن يفعل.

الآن تيقّن بأنّ الجريمة قد اكتملت ولم يعدْ هناك ما يمكن أن يفعله، نظرَ الى داخل السيارة ليجد حقيبته كما هي، ولكن لا أثر لجوّاله!

فتح الحقيبة ليجدَ بها جواز سفره وتذكرة العودة وبقية الألف دولار التي أرسلتها له ماريانا قبل مجيئه من مصر، ولا يوجد أيّ شيء يخصّ ماريانا أو جورمان.

العقل وقراره الحاسم يدفعانه الآن للذهاب لأقرب مطار ليرى أول موعدِ عودة إلى مصر ويقوم بتعديل تذكرته إليه مستقلًّا أوّل طائرة تهرب به من جحيم لا قبل له به، فحتمًا سيسلخه جيفيد حيًّا إن أصاب ماريانا أيّ سوء، حتّى لًو لم يكنِ المسئول المباشر عن سلامتها، فقد رأى مدى دلالها والنّعيمَ الذي ترفل فيه ممّا يوحي بمدى محبتها الحقيقية بقلب أبيها هذا!

ولكنْ، مَن قال بأنّ سفره وهروبه هما الحلّ للخروج من مأزقه؟

جيفيد بأمواله وسلطاته يمكنه إرسال قاتل محترف للنّيْل منه بمصر، ولديه كافة بياناته بالفعل، ولا يمكن أن يذهب عامر الى أبيه مطالبًا إيّاه بسرعة الانتقال إلى عنوان جديد مجهول هربًا من عصابة دموية أو قاتلٍ دولي مأجور!

جيفيد رجلٌ كبير مخضرم، يظهر على وجهه تمرّسه وقدرته الحقيقية على معرفة معادن البشر الحقيقية؛ لذا نبرة الصدق في حديث واعتراف عامر سيكونان ظاهريْن بشكل جليّ عندما يقصّ عليه القصص، وأنّه لا ذنبَ له، ولم يتأخّر عن أيّ ردّ فعل قد يحفظ ماريانا من هذا المصير الغامض الذي وقعت فيه.

لذا وبعد كثيرٍ من التفكير والتردّد قرّر عامر أن يعود أدراجه نحو جيفيد وليس الهرب منه، فحتّى لو قتله أو عاقبه فوقوع المحذور أكثر رحمة وعطفًا من انتظاره القاتل!

ولكنْ كيف يمكنه العودة وهو يجهل الطّرق التي ستوصله إلى قصر جيفيد؟!

لقد تعلم قيادة السيارات بشكل بسيط مع زملائه بالجامعة، المشكلة في معرفة العنوان وليس لديه هاتف ليتّصل بجيفيد مخبرًا إيّاه بسرعة التحرّك.

فتحَ شاشة جهاز تحديد المواقع بالسيارة، وكما توقّع كان مسجّلًا عليه الرّحلة الأخيرة التي أتوا بها، فقام بعكس هدف الرحلة فيها وبدأ في قيادة السيارة الحديثة جدًّا، والتي كانت تنطلق به في سلاسة تامّة وراحة بالغة، وبعد كثيرٍ من الوقت الذي لم يحصه كان يقف أمام القصر الذي لم تنفتح بوّاباته بمثل المرّة السابقة، فأطلق بوق سيارته بشكل متتابع، وبعد كثيرٍ من الوقت الذي ظنّ أنّه حتمًا لن يكون هناك استجابة بعده انفتحت البواباتً، فسار بها نحو مكانها المعلوم أمام باب القصر الدّاخلي، وعندما توقّفت هبط منها مسرعًا ليجد جيفيد يقف أمامه متّسع العينين ومتسائلًا في صمت عمّا حدث، فقال عامر بتهدج وهو يحاول استجماع شتات أمره:

– لقد اختطفت ماريانا واختفى جورمان.

ظلّ جيفيد على صمته، ومازالت عيناه متسعتيْن، يبدو أنّ المفاجأة قد ألجمت لسانه بشكل تام، حتمًا سيخرج مسدسًا من طيات ملابسه الآن، أو سيدخل مسرعًا ليجلب بندقيّة ضخمة ليطلق عليه جميع ما يملك من رصاصات، وبالطبع لن تشفي غليله، ولكنه نطق بجملة عجيبة لم يتوقّعها عامر أبدًا، فقد قال ببطء وتعجب:

– لماذا جئت؟

هزّ عامر رأسه بدهشة وقال:

– ماذا؟!

– ماذا تتوقّع أن أفعل بك الآن؟

– ستقتلني شرّ قتلة.

– لماذا لم تهرب إذًا؟

– لقد وعدتك بحمايتها، ولم أقصّر في ذلك، وجئت لأخبرك بما حدث، ولأساعدك في إعادتها مرّة أخرى.

ظلّ الرجل صامتًا معقودَ اللّسان للمرة الثانية، وقال ببطء:

– هل ما تقول هو الصّدق حقًّا؟!

بكلّ يقين قال عامر:

– نعم.

للمرّة الثانية تكبّل الدهشة جميع مشاعر عامر عندما قهقه الرجل بقوة، ووضع ذراعه الثّقيلة على كتفه بمثل المرّة الأولى وهو يقتاده للداخل، إمّا أن هذا الرجل قد جنّ وفقَدَ عقله على إثر ضياع ابنته، أو أنّه يقوده لمحرقة خاصّة تتناسب مع عظم الجريمة التي حتماً لن يكفيه محرق الأرض كلّها مقابل فقدان ابنته لشعرةٍ واحدة من رأسها!

خطا عامر بقدميه الى الداخل، ليجد بمقابلته مفاجأةً كادت تفقده وعيه بعد أنْ زاغ بصره لمرآها، فقد كانت ماريانا هناك عند شاشتها السّينمائية منغمسة في ألعابها، ولا تدري شيئًا عمّا يدور حولها!

***

نفس المائدة العامرة بمختلف الأصناف وأطيب اللحوم بمشهدها الأخّاذ وعبقها وروائحها التي تُسيل اللّعاب بشكل تلقائي، ورغم كلّ ذلك، كانت عديمة المذاق في فمِ عامر الذي يلتهم طعامه بصمت وآليّة عاقدًا حاجبيه بصمت تام؛ فقد فارَقه الشغف وكلّ مشاعره السّابقة التي كان يرفل فيها، شتّان بين هذه الوجبة ومثيلتها التي كان يتقافز بمشاعره بين آنيتها بانبهار وسعادة وإقبال!

ماريانا كالعادة لا يشغلها الأمر، وتتناول طعامها بسرعة بعد انتقاء نتفها الصّغيرة من كلّ شيء، وذهبت منطلقة لألعابها مرّة أخرى.

وجيفيد يلتهم طعامه بتذوّق واستمتاع بطيء، ولا تغيب عيناه الثاقبتان عن عامر، فتضيق حدقتيه بعد أن يسبرَ أغوار الأخير، ويعرف كلّ ما يحيط به من مشاعر سلبية بتقدير حقيقي.

انتهى عامر من تقضية الواجب في تناول وجبته معهم وبصمت ووجوم استأذن في الصعود لغرفته، وبصمتٍ أشار جيفيد إليه أن يتصرف بما يشاء، فانطلق صاعدًا، ليغلق باب غرفته بإحكام وارتمى على سريره وهو يتنهّد بقوّة، ويهزّ رأسه بألم!

صوت التنبيه بمجيء رسالة إليه على جوّاله؛ الذي أعاده جيفيد إليه، دفعه الصّوت للانتفاض بحماس من رقدته، وبدلًا من تناول الجوال ليرى فحوى تلك الرسالة، فتح حاسوبه المحمول، فقد كانت الرسالة على برنامج مراسلة الفيس بوك، وكما توقّع كانت من عبير التي كانت تشتعل حماسًا وسعادة،

ابتسم لأوّل مرّة براحة حقيقة وسعادة عميقة، انطلق في الحديث معها يسائلها عن أخبارها وعن أمّها وأخيها ويستمع بمنتهى الأناة والرّغبة الحقيقة في المعرفة عن كلّ تفاصيل حياتها.

وأخيرًا في نهاية المحادثة، تردّد كثيرا قبل أن يقول لها:

- عبير.

- نعم.

- أنت أجمل شيء في حياتي.

لو رآها الآن رأيَ العين لأدرك مدى الأثر الفائق لجملته البسيطة هذه، فقد كانت تحلّق بالفعل في آفاق السعادة والانتشاء، وببسمة غيرت كلّ ملامحها لترسم لوحة للبهجة كتبت له:

- شيء؟!

- أقصد أجمل ما في حياتي.

- ما؟!!

- أحبّك.

وهنا كادت تفقد وعيها؛ لذا أغلقت صفحة الفيس بوك على جهازها العتيق، وارتمت على سريرها لتستمتع بنغماتِ قلبها الخافقة؛ بسرعة يصعب عليها ملاحقتها.

وعلى الجانب الآخر لم تقلّ سرعة ضربات قلب عامر عنها كثيرًا، وبعد تغيّبها في الردّ عليه، قام ليرتمي هو كذلك على سريره وهو يشعر ببهجة مماثلة، نعم هي الحبّ الحقيقي في حياته، هي المشاعر الراقية النظيفة المجرّدة من كلّ هوى، هي التي يعلم عنها كلّ شاردة وواردة، ولا تحيطها الألغاز.

هي التي تسعى وتحلم برضاه، وليست التي يجب عليه التنازل عن كلّ ما يملك ماديًّا ومعنويًّا وفكريًّا لكي ينال نظرة رضا منها!

هي التي تعظّمه لا تحتقره!

نعم هي حبّه الفعلي والكبير، والذي تربّى رويدًا، ونما مرافقًا لنموّه الشّخصي والفكري، هي الحبّ الذي تسرب إلى قلبه ببطء ويقين، وتمكّن منه وتربّع على عرش قلبه، وأصبح المستقرّ الذي يعود إليه بعد كلّ شطط قد يناله.

لذا سعادته الآن حقيقية وكبيرة بإداركه ونطقه بذلك.

فرغمَ قسوة ما هو فيه الآن، لكنّه يحمد الله أن وقع كلّ ذلك ليستفيق من غيّه، وليدرك أن كلّ ميسّر لما خُلق له، وأنّه كان يعيش في سعادة لم يدرك قيمتها إلّا بعد اشتباكه مع ما هو منغمس به الآن.

لن ينسى أبدًا ذلك المشهد القاسي الذي كاد يقضي عليه؛

عندما التفتت ماريانا إليه عقب عودته رثّ الثياب مهلهل المشاعر ظانًّا أنّها في خطر عظيم بسببه، وإذا بها في آخر موضع وهيئة يمكن أن تخطر بباله!

اتّسعت عيناها دهشة، وتنازلت عن لعبتها المفضلة لتقف وتقترب منه ببطء، وقالت بخفوت:

- ما الذي جاء بك؟

ربّت جيفيد بقوّة على كتفه وقال:

- لأنّه رجل حقيقي، لم أتوقّع العثور على مثيل له، خاصّة في عمره هذا!

وبنفس الذّهول والعينين المتّسعتين نطق عامر كذلك بشحوب قائلًا:

- وأنت ما الذي جاء بك هنا؟ وما الذي حدث؟!

وبدأت الحقائق العجيبة كلها في التكشّف، عندما قال له جيفيد سابقًا بأنّ أحلام ماريانا هي أوامر لا تقبل النقاش؛ كان يعني ذلك حرفيًّا، لذا عندما كان شطط طلبها هذا لم يناقشها فيه ونفّذ لها ما أرادت، ولم يكنْ في الحسبان هذا التطور العجيب!

بدأتِ الأحداث في منتصف العام الدراسي الماضي، كان ذلك الشاب الذي انتزعها عامر من بين ذراعيه صديقها وحبيبها المقرّب بما تعنيه الكلمة في ثقافة هذا البلد، ولكن يبدو أنّ الزهد والملل مما تملك بين يديك يكون سريعًا في هذا السنّ؛ لذا كان تحوّله عنها رغم ارتباطها الحقيقي والقوي به.

وبعد أن بدأ في مواعدة أقربِ صديقاتها هاجرًا إيّاها، راودتها تلك الفكرة، سوف تريَه مَن الذي يحلم بها ويتمنّى قربها، ليس زميلًا يراها كلّ يوم، بل مَن يهجر أهله وبلده وينفق ما يملك ويعبرُ جبالًا ومحيطات، ويطير ليحظى ببضع دقائق بجوارها، وكانت الخطة التي جلبتْ لها عامرا فقط لتغيظه به!

ولكن تطوّرت الأحداث بما لم يخطر على بالها مرتين، الأولى عندما علمت ماريانا أنّ غريمها برفقة صديقتها على شاطئ قرطاجنة، فقررت أن تكون هذه هي اللحظة المرتقبة، وعندما ذهبت لتجذبه نحو عامر إذا به يصارحها بحبّه، وأنّه ما نسيَها، وأنها هي التي تسكن قلبه وتتربع فيه، ونالت منها كلماته المعسولة وبينما هو يحتضنها ويهمس إليها بتهكّم سائلًا إيّاها كيف صدّقت ذلك بهذه السرعة ويسخر منها!

وقبل أن تنتفض بأيّ ردّ فعل، جاء حصاد سعيها منذ أشهر بأروع ثمار تنتظرها، وذلك عندما اقتحم عامر المشهد بمثل ما سبق.

ولأنّ الأمر أصبح معقدًا وقد تتصاعد الأمور على أثره لصراع لا داعي له، فقد كانت تعليمات جيفيد واضحة بأن يتمّ التخلص من عامر بشكلٍ تام؛ وأن يختفي من الصورة بشكل نهائي، وليس هناك أفضل من دفعه للهروب وعدم التّفكير في العودة أو محاولة التواصل مرّة أخرى، فتمّ دفعه لتناول مشروب مزوّد بمادة مخدّرة ليذهب به في منطقة اللّاوعي ويستيقظ على مصيدة أعدّت له بعناية؛ تدفعه لطريق واحد فقط، ألا وهو الهرب بأسرع ما يملك، ولكن..

كانت المفاجأة الثانية والتي غيّرت كلّ شيء لدى جيفيد، لم يتوقع أن يكون عامر بمثل هذه الرّجولة والشجاعة والشهامة، ولأنّه يفهم أنماط البشر جيدًا قرّر مكافأة عامر بأن يقضي أجازته كاملة في رعايته محقّقًا له كلّ ما يريد مكافأة له على رجولته هذه.

ولكن، بعد تكشّف كلّ ذلك تغيرت مشاعر عامر كلها إلى النقيض، أدرك بأنّه لم يكن سوى حذاء في قدميها تحقّق به غرضًا مؤقتًا، وبكلّ استهتار ولا مبالاة تقذفه بعيدًا عنها بعد استنفاد الغرض منه، شعر بالمهانة الكبرى جرّاء ذلك، ورغم أنّه الآن متاح له كلّ ما كان يصبو إليه، إلّا أنّه فقد كلّ الشّغف نحوه، كمريض يشتهي الطعام وفقد حاسة التذوّق حال توفّره، فلم يعدْ يعنيه كلّ ذلك، بل لقد تصاعد البغض في قلبه نحو ماريانا وأبيها، وحتى ذلك الضّخم السخيف جورمان، كلّ هؤلاء يتلاعبون بأموالهم وسلطاتهم بمشاعر البشر وأحلامهم ويحرّكونهم كالماريونيت لتحقيق أغراضهم الشخصية وفقط، أدرك الآن مشاعرَ عبير التي كان يوجّهها نحو ما يريد بما يملك، فكما خطط لمنحها حاسوبه القديم، وهو يثق بأنّ حاجتها إليه ستجعل الامتنان لفعله أيسر طرق التحكّم فيها، ورغم أنّ الأخيرة تتحرك في منطقة تحبّها، ولكن ما الفارق؟ فهي تجهل كونها بالنسبة له جزءًا من التسرية والإحساس بأنّه مرغوب من الجنس الآخر وفقط، دليل ذلك كفره بها بمجرّد ظهور ماريانا!

شعورُه بالخسّة من ماريانا والذنب نحو عبير جعلاه في مأزق نفسي لم يخطر له ببال.

لذا بعد صدمته التي أذهلته عمّا حوله، صعد لغرفته وارتمى على سريره وهو يغطي وجهه بوسادةٍ صغيرة كأنما يخنق أنفاسه المتسارعة، وهو يرتجّ بعنف ويكاد يبكي ولكنْ تعانده الدموع، وأنقذه النوم ليخفف عنه كلّ أوجاعه وصراعاته النفسية، وعندما عاد من عوالمه، كانت قدرته على

التّفكير المنطقي قد رست على شواطئها، فبدأ يرتب خطواته التّالية، أبوه أحقّ الناس بالتفكير فيه الآن، لذا لا بدّ أن يستكمل مدة الشّهر التي أخبره عنها لنيْل هذه الدّراسة المزعومة، وفي تلك الفترة المتبقّية لن يشغله سوى العبادة والاستغفار والتوبة والندم على كلّ ما فات، ولهذا عندما وجد عبير تسعى للتقرّب منه أكثر وأكثر، فتح لها قلبَه على مصراعيه ودعاها بكلّ الودّ والصدق لأن تلجَه وتسكنه بأبدية مستحقة.

ولم يكنْ يدري بأنّ ما فات من أهوال- حسب ظنه- لم يكن سوى رذاذ من شلالٍ هادر قادم إليه بكلّ عنف وقوّة!

***

بعد أنِ انتهى عامر من صلاة الفجر التي قدّر وقتها عبر أحد المواقع الإليكترونية المتخصّصة في ذلك، جلس ليردّد أذكاره وهو يجتر ما اعتاد عليه مع أبيه في هذه اللّحظات، وكم كانت ثقيلة عليه، الآن هي السّلوى الوحيدة له، سينتهي منها ويقرأ بعضًا من آيات الذكر الحكيم ثمّ ينام قليلًا ليستيقظ لصلاة الضّحى كما اعتاد في الأيام التي مرت عليه، لا ينكر بأنّ مشاعره قد هدأت كثيرًا، ولكن بغضَه لماريانا وأبيها لم ينتقص مقدار خردلة؛ رغم قبولها بمكثه حتّى انتهاء الشّهر بعد أن شرح لهم بصدق حاله مع أبيه!

الآن تبقّى أسبوع واحد ويعود إلى أهله ليدّعي انتهاء التدريب العملي الذي زعم أنّه قادم إليه، ويتخلّص من كلّ ذلك ويبدأ في الاستمتاع بحياته التي كان ناقمًا عليها!

ارتفع صوتُ طرقات على بابه لأوّل مرّة منذ طرق ماريانا الأخير قبل سفره إلى شاطئ الغرام الدّموي!

انعقد حاجباه بقوّة وهو يتساءل عمّن سيرغب في رؤياه الآن وفي أي شأن ستكون الرغبة في ملاقاته؟!

علاقتُه بهذه الأسرة لم تتخطّ أكثر من بضع كلمات طوال الأيام المنصرمة، ولكن لم يكنْ لديه رفاهية الرّفض فأذن للطارق بالدخول، فإذا به جيفيد الذي دخل ببطء وهو يتمعّن في مشهد عامر بجلسة التشهّد التي كان عليها بعد انتهائه من الصّلاة، وعامر يبادله التحديق المتعجّب والمتسائل، استفاق جيفيد من نظرته الأسيرة لجلسة عامر وجلس على أوّل مقعد قابله وقال بهدوء:

– المفترض أنّ مشاعرك قد هدأت الآن، ويجب أن يعلو صوت العقل لديك كثيرًا على صراخ عاطفتك الجريحة.

شعرَ عامر بأنّ هذا كلام سفسطائي لا يعنيه في شيء، حتّى لو علا صوتُ العقل لديه، فماذا يريد منه جيفيد بعد أن يتعقّل؟ لقد انتهت وظيفتُه الرئيسية للتسرية عن ابنته المدلّلة بدرجة خيالية!

فاحتفظَ عامر بصمته منتظرًا جيفيد أن يأتي بما عنده، ولم يتأخر الرّجل، فلم يكنْ بالفعل ينتظر منه إجابة، فهو آتٍ ويعرف جيدًا ما يريد، فاستطرد قائلًا:

– ستأتي معي اليوم في رحلةٍ ستعدل الكثير من تفكيرك ومشاعرك.

ارتفعَ حاجبا عامر عاليًا، أيّ رحلة هذه يريده جيفيد لأجلها؟

وكالعادة لم ينتظر جيفيد أنْ ينطق عامر بتساؤله هذا فعاجله بالإجابة مستطردًا:

- ستأتي معي إلى المبنى الرئيسي لمجموعتي الاقتصادية، ستحضر معي اجتماعَ مجلس إدارتها، وهناك ستلتقي شخصية لا يمكن أن تسافر بدون مجالستها.

لم تطفئ إجابة جيفيد أيًّا من تساؤلات عامر، بل على النقيض فقد ارتفعتْ بها لمستوى أعلى متضاعف عشرات المرّات!

ربّت جيفيد على كتفه وهو يقول له بحنان أبويّ عجيب:

- فلتنتهِ من طقوسك الخاصّة، ونلْ قسطًا من الراحة كما تفعل دومًا، ولكن كنْ مستعدًّا في تمام التاسعة.

وتهادى الرجل خارجًا وجاذبًا الباب خلفه بهدوء، وبالطبع كان يدرك جيدًا بأنّ جلسته القصيرة هذه وعباراته التي طرحها قد جذبت عامر إلى يمّ جديد من الدهشة والحيرة.

الرّجل كان يظهر في صوته كمّ كبير من التقدير والاحترام الكبيرين، بل وعلى نقيض كلّ مرّة جالسه فيها عامر كانت عيناه تفيضان محبّة واهتمامًا لم يرهما عامر يومًا إلّا في حدقة أبيه!

ما الهدف من حضور عامر اجتماعَ مجلس إدارة مجموعة اقتصادية يسمع عنها الآن للمرّة الأولى؟!

إذًا، لم تكن جلسة الرجل الدائمة في منزله بطالة مقنعة، أو إدارة لشئون عصابة دولية من داخل قلعته! فالرّجل اقتصادي كبير له وزنه، ممّا يفسّر كلّ هذا البذخ المبالغ فيه!

وترى مَن هذه الشخصية التي يتوجب على عامر أن يلتقيها؟!

هزّ رأسه وهو يحاول نفضَ كلّ هذه التساؤلات جانبًا، فبعد سويعات سيعرف كلّ تلك الإجابات؛ فلا داعي للانشغال بها الآن.

ولكن فشل في صرفها عن مخيّلته تمامًا حتّى داعبه النعاس وذهب في سبات عميق.

***

تضاعفَ انبهار عامر لمستوى غير مسبوق هذه المرّة، فالمروحية التي انطلقت به من منزل جيفيد والتي رغم صغر حجمها إلّا أنها لم تفتقد إلى الرّفاهية الكبرى داخلها، ومشهد المنصّة التي هبطت عليها والتي تحمل حرف (**H**) لترتكزَ عليه بقائميها السّفليين، ومشهد هبوطه منها، وشعره النّاعم يتطاير على إثر بقايا دوران المروحة الكبرى للطائرة، ورجال الأمن المتسابقون لمرافقة جيفيد الذي أصرّ أن يضع ساعده الثّقيل على كتف عامر في إشارة واضحة لمدى أهمية الأخير عنده، فتصاعدت نظراتُ الاحترام والتبجيل لعامر كذلك، والمبنى العملاق الذي يحتلّ مساحة كبرى على ساحل المحيط بواجهاته الزجاجية، كلّ ذلك لم يره عامر إلّا في الأفلام الأمريكية الهوليودية ولم يخطر بباله ولو لوهلة أن يعيش أو يرى ذلك رأيَ العين يومًا ما!

كان يسير برفقة جيفيد الذي يتهادى في مشيته بخيلاء متعمّد، والجميع يسرع بإفساح الطريق له، وعبر مصعدٍ مهيب هبط طابقين فقط، وسار بعامر إلى مكتبه المبالغ في أناقته وتأثيثه بصورة جعلت عامر يدور حول نفسه حتّى يرصد كلّ مظاهر الأبهة التي لم تخطر له على بال، كيف يترك جيفيد كلّ ذلك ويمكث في المنزل أمام شاشة تلفاز ليحتسي مشروباته فقط!

ذهبَ عامر نحو الجدار الزجاجي ووقف يشاهد أمواج المحيط الهادرة من بعيد في صمتٍ تامّ بسبب طبقات الزجاج العازلة للصوت، ومن بعيد ظهرت أسرابُ الطيور المنطلقة والتي قد تكون مهاجرة إلى حيث لا يدري.

جلسَ جيفيد خلف مكتبه وحوله ثلاثةٌ من الرجال شديدي الأناقة يعرضون عليه ملفّات محفوظة داخل حافظة جلدية سوداء، وهو يهزّ رأسَه ويهمس ببعض العبارات القصيرة، أو يوقّع بقلمه على إحداها، وأخيرًا انصرف الجميع، فذهب عامر ليجلس على المقعد المقابل له، وهو يقول له مبتسمًا:

– لقد نجحت في إثارة انبهاري للذروة هذه المرة.

ضحكَ جيفيد عاليًا وقال:

– رائع جدًّا، أحبّ ذكاءك هذا، وإدراكك لما خلف الأمور، نعم بالفعل كان هدفي إثارة انبهارك، ولكن مازال في جعبتي الكثير، فلم يكن هذا هو الهدف الوحيد لجلبك هنا اليوم.

نظر عامر نحوه بتساؤل، فاستطردَ جيفيد قائلًا وهو يشير نحو الخارج عبر الزجاج المصمت:

– تلك الطائرة القادمة تحمل حلًّا لأكبر مشكلة تواجهك هنا.

نظرَ عامر نحو ما أشار اليه فلمح بالفعل مروحيّة قادمة نحو المبنى لم ينتبهْ إليها قبل حديث جيفيد عنها، وهزّ رأسه وهو يتساءل عمّن تحمل، ولكن انشغل جيفيد عنه بالردّ على جوّاله، وبعد قليل وبوقت يسمح بوصول الرّاكب القادم على متن تلك الطائرة، انفتح الباب ليقف عنده آخرُ شخص توقّع أن يراه عامر في ذلك الحين، فقد كان ذلك الشابّ الذي ضربه عند شاطئ الغرام الدّموي!

***

كان المشهد عجيبًا لجميع الأطراف عدا جيفيد، المعتاد في هذا الاجتماع أن يجلس هو على رأس الطاولة الممتدّة، وأمامه على جانبيها يجلس مديرو ورؤساء الأفرع لمجموعته الاقتصادية الكبرى، ولكن هذه المرّة كان بجواره على رأس الطاولة جلوس عامر على كرسي مخصص له، لا يدري عامر لمَ طلب له هذا الموضع وهو الذي لمْ ولنْ يكون له أيّ دور في هذا الاجتماع الذي سيكون سخيفًا، لقد تشبع بالانبهار الكامل؛ فلمَ المبالغة في بثّ دواعيه، إن أكلت قطعة من الكعكة ستستثار شهيتك نحوها إلى الذّروة، أمّا إن أوغلت فيها ستفقد شهيتك ورغبتك نحوها تمامًا!

لذا بملل رتيب انصرف ذهنُ عامر تمامًا عن أحداث ذلك الاجتماع من مراجعة لما تمّ في الشهر المنصرم وتخطيط وترتيب لما هو قادم، وأخذ يسترجع ما حدث مع ذلك الشابّ حبيب ماريانا السابق.

دخل وهو ينظر نحوه بعدائيّة تامّة، وبقبضة مضمومة وكأنّما سيسرع ليردّ لعامر تلك اللّكمة التي أسالت دمه وأهدرت كرامته، ولكن وببساطة تناقض الخُيلاء الذي دخل به منذ قليلٍ اندفع جيفيد نحوه محتضنًا إيّاه، ومرحّبًا به في مبالغةٍ ظاهرة، ثمّ قدّمه إلى عامر وهو ينظر إلى الأخير نظرة خاصّة قائلًا:

– عامر، شابّ مصري رائع، له عندي مكانة الابن تمامًا، بسبب اختلاط الأمر واختلاف المفاهيم والثقافات بيننا وبينه، وقعت الواقعة بينكما.

أخذَ جيفيد يلوّح بيديه لعامر أن يتقدّم ليسلم على الشاب، فتقدم ببطء وصمتَ وهو ينظر نحوه بقوّة، وعندما وصل إليه رفع يده بتردّد ليسلم عليه، وبملامح توشي بالغضب والغيظ استقبل الشابّ يده مسلّمًا وهو بادٍ عليه بقوة أنّه مرغم على ذلك.

وعقبَ أن جلس الجمع تمّ الاتفاق الذي يرضي كلّ الأطراف؛ فبعد عشر دقائق كان هناك فيديو بدأ في تحقيق أعلى المشاهدات بسرعة، يحوي مشهدًا مناقضًا لما جرى منذ قليل؛ فالشاب وبجواره عامر يجلسان متجاورين ويضعان سواعدهما فوق كتف بعضهما البعض ويبتسمان ابتسامة عريضة، وعامر ابتدر الحديث قائلًا بأنّ ما حدث تمّ فهمه ونشره على غير حقيقته، فقد جاء من سفر بعيد والجزع يكاد يوقف دقّات قلبه على صديق عمره بعد أن أرسل له الأخير يخبره أنه في جراحةٍ عاجلة غالبا لن تقوم له قائمة بعدها! وانقطعت كلّ سبل الاتّصال ولم يأته ردّ على أيّ من محاولاته المستمرّة والمتكرّرة عبر جميعِ الوسائل، فما كان منه إلّا المجيء مسرعًا من آخر الأرض

ليطمئنّ على صديق عمره، ليكتشف مزاحَه السّخيف، وأنه كان ضحية مقلبٍ قام به الأخير، فمغتاظًا قام بلكمِه جرّاء هذا القلق والرعب اللّذيْن نهشا قلبه.

وبهذا فقد حلّت المشكلة بينهما، وانتهى صراعٌ دموي قد ينشأ بسبب هذا الموقف، وبكلّ البغض تصافحا في النهاية، ونظرا نظرة استهجان كانت آخر ما لقي كلّ منهما من الآخر!

استفاق عامر من خيالاته على ذراع جيفيد الثّقيلة التي لا يملّ من إثقال ترقوته بها، وسمع الأخير يقول:

- ولهذا فعامر سيكون معنا في جميع الاجتماعات القادمة، وقد ينوب عنّي حال مغيبي.

فارتفع تصفيق الجميع، في حين اتّسعت عينا عامر جرّاء ما سمع، ما هذا الذي اخترق أذنه؟! المفترض أنّه سيغادر كولومبيا بلا عودة بعد أيام قلائل!

بدأتْ تتّضح لعينيه الصورة المموّهة التي كانت ترتسم أمامه ولا يكاد يدركها، لماذا سعى جيفيد لإنهاء الصّراع الوشيك بينه وبين ذلك الشاب؟

ولِمَ جلبه هنا وقد كان من الممكن فعلُ ذلك في قصره المهيب؟!

ولِم تعمّد إظهار قربه وخصوصيته أمام الجميع منذُ هبط من أعتاب المروحية؟!

الجُملة الأخيرة لجيفيد؛ هل هي الإجابة عن كلّ ذلك؟!

ارتبك عامر بقوّة واهتزّت مشاعره بعنف، هل من الممكن أن إعجاب الرّجل به وبرجولته على حسب ما يردّد قد تدفعه ليكون عامر وريثه أو حتّى الأمين على أعماله؟!

اتّسعت عينا عامر وقد برقتا بقوّة، كلّ هذه الأبهة وأنهار الأموال التي تجري من تحته هل من المعقول أنّها قد تئول إليه هو؟!

هذا حلمٌ مستحيل لم يجرؤ خياله على محاولة الاقتراب منه.

ولكنْ ماذا عساه أن يفعل إنْ كان ذلك حقيقة؟

هزّ رأسه بقوة ليستفيق من خيالاته وخباله، حتماً ليست الأمور هكذا أبدًا، لقد سرح بخياله وتوهّم أنّ ماريانا قد وقعت أسيرة لبريق عينيه ولهذا فعلت ما فعلت لتنال عبقًا من قربه، وعندما هوى إلى أرض الواقع بعنف؛ اكتشف المكيدة وحقيقة الأمر، من العبث والعته أن يسرحَ بخياله لما يخالف حقيقة الأمور مرّة أخرى وبهذه السرعة، حتماً هناك أمرٌ خفيّ آخر خلف ذلك، فلن يقعَ الرجل أسيرًا لمحبّته لمجرد موقف واحد يراه شجاعًا رجوليًّا شهماً!

لذا من الحكمة عند عدم إدراكك لمغزى الأمور أن تبتعد عنها ولتأتي الحقيقة ببراهينها حينما يروق لها، فلن يقع مرّة أخرى فريسة لاكتشاف الحقيقة بعد دفع ثمن باهظ لها.

وكالعادة وكأنما تتعمّد أن تظهر هي في تلك المواقف المتباينة؛ جاءه تنبيهٌ لمحاولة اتّصال عبير به عبر الفيس بوك، وبتكرار غير مملّ، ورغماً عنه تصاعدات المقارنة بين ما هو فيه وبين حال الطرف الآخر لهذا الاتّصال،

لو نشأ صراع بين هذين الحالين الآن فحتماً لا وجه للمقارنة أو محاولة التساؤل عمّن سيفوز!

لذا وحتّى ينهي هذا الجدل البيزنطي داخل عقله، قام بإلغاء محاولة اتصالها، وقد قرّر الصمت ولن يتدخّل فيما هو قادم لا بالسلب أو الإيجاب، وسوف يترك التيارَ ليسحبه بهدوء إلى برّ الحقيقة التي لا يدركها الآن.

***

كانت رحلة خروج عامر من المبنى بروحٍ جديدة تغاير تلك التي دخل بها تمامًا، فقد ارتسمت على وجهه بسمة لا إراديةٍ تحمل رضا وسعادة خفيّة لا يدري مبعثهما.

بل مشهد رجال الأمن وهُم يتحرّكون بحرص وحذر وتبجيل لجيفيد وبالطّبع له؛ كانت تثير بداخله الكثير من الرضا والتسامي كذلك.

لم تكن نظراته لمعالم المبنى استكشافية، بل كانت إحصائية!

وعندما استقلّ المروحية استرخى بمنتهى الرّاحة كأنما يريد امتصاص كلّ وسائل الرفاهية في جلسته هذه، وأغمض عينيه ورغماً عنه سرح خياله لمرحلة استئثاره بكلّ ذلك، وبجواره جيفيد الذي نظر لبسمته الحالمة التي تحتلّ كامل وجهه الناعس، وابتسمَ هو كذلك برضا تام، وقد أيقن بأنّه قد نجح تمامًا فيما سعى إليه برحلة اليوم.

ولدى دخولهما القاعة الرئيسية للقصر الذي يراه عامر بيتًا فاخرًا جاء ليستريح فيه؛ وليس سجنًا يطوّقه لعدّة أيام حتّى ينطلق لمساره المعروف، كانت ماريانا تقف أمام الشاشة الكبيرة وهي تتراقص بمنتهى النّشاط على النغمات الصارخة لأغنية صاخبة، وما إنِ التفتت ورأت أبيها حتّى أطفأت كلّ ذلك وانطلقت لتطوّق عنقه بذراعيها متعلقة برقبته، وعينا الرجل تطوّقهما السعادة والبهجة لملاقاتها.

تنحنح عامر وهمّ أن ينطلق صاعدًا لغرفته، ولكن جيفيد حرر ذراعي ماريانا برفق وهو يهتف مناديًا لعامر، الذي توقّف والتفت إليه بحاجبيْن مرتفعيْن في تساؤل، فقال له الأخير:

- تعال، أريدك في جلسة خاصّة أنت وماريانا.

التفتت ماريانا نحوه بحدّة، وكذلك اتّسعت عينا عامر لهذه المفاجأة التي يبدو أنّ في جعبة جيفيد من مثيلاتها الكثير، ولكن بالطبع لم يكن لديه رفاهية الرفض، ودفع فضول ماريانا القبول بما دعاها إليه أبوها، فجلست ملتصقةً به وطوّقته بذراعها وهي تنظر بدقّة نحو عامر الذي تحرّك ببطء وتردّد، وجلس في مقابلتهما، وضع جيفيد ذراعه برفق فوق كتفِ صغيرته المدلّلة، وببسمة صافية ابتدر الحديث قائلًا:

- خذِ المفاجأة الأخيرة وبعدها سوف أبرّر لك كلّ شيء.

اتّسعت عينا ماريانا في جذل في حين كان اتساع عيني عامر فضولًا وتساؤلًا، فقد أيقن من أنّ الرجل لن يملّ من مصارعته بالمفاجآت، فترى ماذا سيخرج من قبعته السحرية الآن؟

بنفس البسمة والهدوء استطرد جيفيد قائلًا:

- لقد تمّ قبولك في جامعة سانتو توماس للدّراسة بها في تخصص (التواصل الاجتماعي).

نطقت ماريانا مبتسمة بكلمة:

- واااو!

في حين نال الصّمت من عامر وقد تصلّب لسانه هذه المرّة عجزًا عن النّطق بدهشة كانت أشدّ من كلّ ما سبق، لقد استبان له أن الرجل بالفعل يعدّه لشيء كبير، وأنّه لم يكن يهذي أو يبالغ حينما أشار بأن عامرًا قد يكون وريثه، الحلم والخيال في طور السعي للحقيقة.

هزّ رأسه غير مصدّق، وخرج صوته شاحبًا وهو يقول:

- نعم؟!

ضحك جيفيد وقال:

- لقد قلت أنتَ لأبيك بأنّك قادم إلى هنا لبرنامج دراسي، وها قد تحقّق، وسيكون في أقدم وأعرق جامعة لدينا، لقد دفعت لك كلّ المصاريف بالفعل، ولكن بهذا ستطول إقامتك لأربعة سنوات، وليس أربعة أيام كما كنت تنتوي.

مازال عامر غيرَ قادر على استيعاب الموقف، لهذا قالها مباشرة:

- ولِمَ كلّ ذلك؟

اعتدل جيفيد في جلسته، وقد نزعت ماريانا ذراعها عن كتفيه وبمنتهى الجدية قال:

– لقد تلاعبنا بك وبمشاعرِك بالفعل، ولم تكن تستحقّ كلّ ذلك، فلم تكنْ وغدًا أو لصًّا، وكنت في منتهى الرقي، بل والشجاعة والفروسية، لذا فلتعدّ ذلك اعتذارًا منّا عن كلّ أذي تسببنا به لك.

نالت الخيبة الكبرى من مشاعر عامر وهو يسمع أنّ كلّ ذلك مجرد اعتذار وفقط!

لقد كان طامحًا في أن يسمع منه بأنّه الولد الذي لم ينجب، وأنه يعده كوريثٍ يطمئنّ إليه في إدارة كلّ ثروته والحفاظ على ابنته، ولكن مجرد اعتذار فقط.

وقبل أن يسرح في خيالاته بادره الرجل قائلًا:

– أنا أدعوك كذلك لصداقةِ ومرافقة ماريانا، الأمور الآن جلية بشكل تام.

اعتدلتْ ماريانا وهي رافعة حاجبيها وهي تقول:

– ماذا؟!

وبالطّبع للمرّة الثانية عجز عامر عن الكلام، فاستطرد جيفيد قائلًا:

– أنت خيرُ مَن يرافقها، سأكون مطمئنًّا جدًّا عليها معك.

نطقت ماريانا قائلة:

– أبي هل تتكلّم بجدية؟!

فالتفتَ إليها جيفيد وضمّها إليه وقبل رأسها قائلًا:

- اعتبريه الطلبَ الوحيد من أبيك المحبّ لك، حاولي التقرب منه، واعتبريها تجربة جديدة، أثق بأنّه سيعجبك بالفعل.

لوّحت ماريانا بيدها وانطلقت صاعدة بصمت إلى غرفتها، وعينا جيفيد وعامر لم تفارقاها حتّى اختفت، فالتفت الأخير نحو الأول وقال له بجدية:

- هل حقًّا تعني ما قلت؟

وبنفس الجدية ردّ عليه جيفيد قائلًا:

- وهل وجدت منّي عبثًا فيما يخصّ ماريانا من قبل؟

- ولكن..

- انسَ ما قلته لك سابقًا، هي صديقتك بأمر منّي ولا يوجد أي محاذير سوى الحفاظ عليها والسعي لمحبتها الحقيقية بالفعل، وأثق بأنّ هذه المحبة القلبية لن تتأخّر كثيرًا معها، فلن تجد أميرةً ملائكية مثلها على وجه هذه الأرض.

وكما اعتاد عامر وجد أنّ أفضل ردّ على هذا العرض الغريب أن يلزم الصّمت، وتركه الرجل غارقًا في صمته، وبعد ثوان استأذنه عامر أن يصعدَ لغرفته، فأشار إليه ليصعد إلى حيث الغرق الحقيقي في بئر لا قرارَ له من الحيرة العبثية التي لم تخطر له على بال!

***

- أحبّك يا عامر.

لم تكنْ هذه كلمات كتبتها عبير إلى عامر في محادثتها إليه عبر الفيس بوك؛ إنّما كانت رصاصات حارقة تخترقه، وتتفجر داخلة بقوة وقسوة وعنف!

لم تكنْ تنقصه هذه العبارة ليعاني من التمزّق والشتات بين الكثير من المشاعر المتضاربة، حتّى الأمس كانت حياته بسيطة ومعلوم كلّ حدودها، سيعود إلى بلده محمّلًا بخيبة وألم يدفعانه للتمسك بواقعه الجميل، حتّى وإن افتقدَ لمقوّمات الرفاهية والراحةً، ولكن تطوقه الكثير من المشاعر الجميلة المعبّقة بانتصارات حياتية قد تكون تافهة؛ ولكن نتائجها النفسية يصل إليها هؤلاء الأثرياء بعد بذل أكوام من أموالهم!

سيعيش قصّته الغرامية النقية والجلية مع عبير، سيتزوجها وتنطلق حياتهما بنمطية يعلمها الجميع.

ولكن..

انطلقَ بركان ليغيّر معالم كلّ شيء يطوله، المال سبق البنون في زينة الحياة الدنيا، هذه الثروات الهائلة، وكلّ ذلك البذخ قد يصبحان طوع بنانِ عامر إن أفلح في النّفاذ إلى قلب تلك الفتاة المدللة!

الرّسالة كانت واضحة جدًّا هذه المرّة، ولم تعد تحتمل أيّ ظنون أو حسابات، فبكلّ دياثة دعاه الرجل لاختراق جميع الحدود مع فتاته شرطَ أن يفوز بمحبّتها، هذا يشبه تمامًا بما نطلق عليه في ثقافتنا (اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك).

ابتسمَ عامر وهو يرى نفسه ذلك الشّاب الذي استطاع أن يجتذب إعجاب وتقدير رجلٍ بحجم جيفيد، شعر بالحبور والرضا عن نفسه، ولكن..

لقد كان في بداية رحلته هنا يرى أنّ زواجه بماريانا، أن يكون سببًا في هدايتها وأبيها؛ رسالة سامية قوية، وسبيل يستحقّ منه كلّ تضحية وتنازل، أمّا الآن فقد تغيّر كلّ شيء، لقد رأى منهم ما أيقن به أن أفكاره تلك كانت ترّهات وأحلامًا صبيانية، والطرق الممهّدة له الآن ستنزلق به في تيارٍ من التنازلات ربّما تدفعه هو نفسه للتشكك في دينه في النّهاية، لم تعدْ رحلة ينطلق فيها برعونة ثمّ يعود نادمًا تائبًا راجيًا لرحمة الله وسعة مغفرته، بل سينغمس هنا إلى ما لا نهاية، وما يرفضه بعنف سيتسلّل إلى قلبه ببطء بالاعتياد عليه رويدًا رويدًا!

رسالة عبير أمامه مازالت متألقة تنتظر منه الردّ، وهذه الأخيرة ما ذنبها أنْ تقع أسيرة أحلام صارت مستحيلة الآن؟!

في السّابق كانت تحثّ الخطى نحوه فكان يستجيب حينًا ويعرض عنها حينًا آخر، ولكن لم تصلْ أبدًا للمصارحة بأنها دخلت دائرة الارتباط الشّعوري المستوجب لمسئوليات كثيرة كان في حلّ منها، لم يعد من المقبول أن يكسر قلبها أو أنْ يصيبها بأزمة نفسية جرّاء تلاعبه بها إن فعل، هل تكون عبير هي طوقَ النجاة له الآن لتنتزعه مما هو فيه؟

ولكنْ مَن قال بأنّ ما هو فيه وبال أو مصيبة تستوجب الإنقاذ؟

ما المانع من التمسّك بكلّ مبادئه وعدم التنازل عن بديهياته الأساسية؟

هو الآن الطرفُ المرغوب فيه، إذًا يمكنه طرح شروطه!

لمعتْ عيناه بقوّة، وقد قرّر اللعب بطريقة مبتكرة لم تطرق باله من قبل!

وبمنتهى الحماس ردّ على عبير قائلًا بسعادة:

– وأنا كذلك أحبّك جدًّا يا عبير.

***

كان عامر جالسًا بمقابلة جيفيد مشتعلًا بالحماس وعيناه متألّقتان بقوة، مدّ يده وتناول رشفة من مشروبه الساخن، ثمّ تنهد وقال:

– لقد كان زمامُ الأمر بيدك على طول الخطّ، هل تسمح لي بأن أنزعه منك قليلًا؟

اتّسعت ابتسامة جيفيد وتألّقت عيناه إعجابًا وشغفًا وقال:

– بالطّبع تفضّل.

عادَ عامر بظهره الى منتهاه، ورفع حاجبيه وقال:

– لقد أعددت عدّتك لصرف ذهني تمامًا عن العودة إلى بلدي، أرى فيك رغبةَ استثماري، وهذا شيء يبعث على إحساسي بالفخر والزّهو أن وصلت عندك إلى هذه المكانة، ولكن كما طرحت أنتَ شروطك هل يمكنني سكبُ ما عندي؟

فليست ثروتك وبذخك المبالغ فيهما الهدف الوحيد الذي قد يخلعني عن جذوري وكلّ ما ارتبطت به سابقًا.

ضحك جيفيد وقال:

- لو لمْ تفعل ذلك لظننت أنّي أسأت الحكم عليك، هات ما عندك.

تنحنحَ عامر وقد تردّد قليلًا بعد جملة جيفيد الأخيرة وقال:

- أبي ليس له في هذه الدّنيا غيري، وأنا كذلك أراه سندي الوحيد الذي يمكنني الاطمئنان إليه بشكل تام.

- رائع.

- لهذا يجب أن أعودَ إليه محاولًا إقناعه بالمجيء معي حتّى تنتهي دراستي تلك، والتي حين انتهائها حتمًا ستكون هناك تغيّرات كثيرة بتدرّج أثق بأنك قمت بدراسته؛ ممّا يؤهل لإلغاء فكرة العودة مرّة أخرى لمصر.

- عبقريّ، ولم تخالف ظنّي، أكمل.

- في الغالب سيرفض أبي بعنف، ولن تفلحَ معه محاولاتي، ولكن سيمحو ذلك بداخلي الشّعور بالذنب تجاهه.

- لا مانع لدي في ذلك.

- ولكنّ هذا لن يوقف قيامي بواجباتي نحوه من رعاية ودعم عن بعد، وربما عن قرب.

- كيف ذلك؟

- مساعدة ماليّة شهرية له بزعم عملي هنا أثناء دراستي وثرائي جرّاء ذلك، مع العلم أنّي أنتوي ذلك بالفعل ولا أقصد ابتزازك.

- كلّي شغف لما تختزنه للنّهاية، أرى ذلك في عينيك.

تردّد عامر وهو يتساءل كيف استطاع هذا الرّجل سبر أغواره بهذه الشّفافية، ولكن قال:

- وبالطّبع على الأقل سوف أسافر لرؤيته مرّة كلّ عام إن لم أفلح في جلبه لزيارتي هنا.

- لكَ هذا، أنتظر خلاصة هذه الجلسة، اطرحْ ما لديك مباشرة.

ازدادَ ارتباك عامر للحدّ الأقصى وفقدَ ثقته وقوته اللّتين حاول التشبث بهما كمسوّغ للمفاوضات من البداية، فتسارعت سرعة رمشه وبصوت مرتعش متردّد قال:

- حسنًا، طلبك منّي الفوز بقلب ماريانا حلمٌ جميل لي، ولكن..

- أنتظر..

- يوجد فتاةٌ أخرى بيننا ارتباط عاطفيّ قوي، يؤذيني بقوة تحطيم فؤادها بلا جريرة منها.

قام جيفيد لينزع ذراعَ عامر ليجبره على الوقوف واحتضنه بقوّة، ورأى الأخير دمعة تتألّق في مقلتيه، وأخيرًا نطق قائلًا:

- كانت هذه هي اللّمحة الأخيرة التي تدفعني للثقة بك ثقةً تامّة وعمياء.

- لا أفهم.

عاد كلّ منهما ليحتلّ كرسيّه بعد المشهد المسرحي الغريب، وقال جيفيد:

- أخلاقُ الفرسان تشمل كلّ الجوانب، وليست مجرد صدفة لموقف واحد نحكم بها على صاحبها، أنت شخصٌ نبيل حقًّا، وبدون تفاصيل عمّا لديك موافق على كلّ ما تريد.

تردّد عامر وقال:

- ولكنْ فلتعلم ما أريد.

- حسنًا هات ما لديك.

- أريد تعويضها بالمجيء للدّراسة هنا في نفس جامعتي، بكلية الصّيدلة التي كانت تحلم بها، وستكون هي كذلك تحت رعايتي.

- قلت لك موافق على كلّ ما تريد.

اتّسعت ابتسامة عامر الرّاضية بقوّة، وتنهّد بمنتهى الراحة وعاد بظهره للخلف هذه المرّة بثقة أكبر، وقد تحقّقت كلّ أحلامه بلا منغصات على حسب ظنّه.

***

كان استرخاؤه في رحلة العودة الطويلة حالمًا وسارحًا في ملكوت الخيال يستشرف به المستقبل المشرق الذي ينتظره، يذكر المنشور الشّهير الذي يسأل فيه أحد الغربيّين مواطنًا عربيًّا عن أحلامه؛ فقال بأنّه يحلم بتعليم جيّد ومسكن آمن ورزق يكفيه السؤال، فتعجب ذلك الغربي قائلًا:

- هذه هي حقوقك البديهية، كيف ارتقتْ لمرتبة الأحلام؟!

الأمرُ كان كذلك معه بالفعل! كان يحلم باليوم الذي يتخرج فيه من كليّته، وأن يجد عملًا ذا عائدٍ ماديّ يوفر له أساسيات الحياة المريحة، وكان أقصى مدى لتلك الأحلام أن يتزوّج بمَن يحبّ!

الآن أدرك مدى وضاعة تلكم الأحلام؛ بعد أنِ انتفى عنها جميعًا ركن العوز المادي!

أصبح حلمُه البسيط التلقائي الآن أن يصبح زعيمًا اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا يُشار إليه بالبنان، تتسابق وكالات الأنباء لتتبّع أخباره، يحلم المشاهير بصورة معه، أبوه يتابع أخباره بفخر عبر شاشات الفضائيات العالمية الكبرى.

ترى هل هذا هو السّبب في جفاف منطقتنا العربية وندرة ميلاد زعماء حقيقيّين بها في هذه الحقبة العجيبة؟

استفاق على بسمةِ المضيفة الإنجليزية وهي تسأله عمّا يرغب في تناول مِن مشروبات، وببسمة دبلوماسية آلية تفتقد للعرفان الذي كان يحتويه في رحلة المجيء ردّ عليها أنّه يرغب في القهوة السوداء؛ تلك التي تلذّذ برشفاتها وأخذت تغذّي شعور السّمو داخله!

وأخيرًا عندما حطّت قدماه على أرض مطار القاهرة، لفحته حرارة الجو لتستفيقه من أحلامه، ولكنّه ردّ عليها بمنتهى السرعة باستدعاء ليموزين مكيّفة معتمة الزّجاج، كانت محطّ الأنظار المتلهفة والمتسائلة عمّن داخلها وهي تتهادى داخل منطقة السيدة عائشة التي لا يكفّ ضجيجُها ليلًا أو نهارًا.

وعندما هبط منها بسرواله القصير وسترة ملوّنة ببهرجة ونظارته السوداء القاتمة، وفي قدميه نعلٌ خفيف يُظهر أغلب قدمه وأصابعه، ويحمل على كتفه حقيبة صغيرة جدًّا بالكاد تكفي بعض الأموال مع أوراقه الرّسمية الهامّة، عندما هبط لم يتعرفه أيّ من أهل المنطقة، فاندفع إليه أحدُ صبيان القهوة القريبة ليسأله عمّن يريد، فرفع عامر نظّارته وهو يبتسم قائلًا:

- شكرًا يا رضا، أنا عامر.

لينتشر بعدها في ثوانٍ خبرُ عودة عامر كتيّار أخذ يشقّ مساره بين الجموع حتّى وصل إلى أمّ عبير التي عدّلت رباط غطاء رأسها بعد أن دفعت أسفله ما تطاير من شعيرات، وطلبت من جارتها أن تنتبه لبضاعتها حتّى تعود بعد ثوان، وبعد قليل كانت تحتضنُ عامر بقوّة وهي تصيح قائلة:

- والله لقد أوحشتني بأكثرَ من ولدي.

حاول عامر أن يجتذب ما يستطيعُ من هواء إلى أنفه ليزيح ما اقتحمها من روائحها المنفّرة وهو يجاهد لرسم ابتسامة قائلًا:

- لقد افتقدتكم جميعًا كذلك.

جلستْ على أوّل مقعد بمنتهى الأريحية وهي تقول:

- لي عندك سؤال يا شيخ عامر، لو كنت في الحمّام، و...

ضحكَ عامر وهو يشير لملبسه وقاطعها قائلًا:

- شيخ من أيّ اتجاه يا أمّ عبير، لست أهلًا للفتوى مطلقًا، فلتسألي شيخ المسجد.

– لا أرتاح إلّا لك فقط، استمع لي أنا..

قاطعها للمرّة الثانية قائلًا:

– كيف حال عبير؟

ابتسمت بقوّة وقالت:

– لن تجد أفضل منها في الدنيا كلها.

– عندي لها مفاجأة سوف أزوركم مساءً لتسمعها منّي مباشرة.

أطلقت أمّ عبير زغرودة قوّة مفاجئة هزّت بها أركان البيت المتداعي وعامر يتلفّت حوله في حرج، ولا يدري كيف يبرّر سبب هذه الزغرودة، في حين خرج والده وهو يحمل كوبَ الشّاي الذي أعدّه لأمّ عبير وهو يقول مندهشًا:

– خيرًا؟ ماذا هناك؟

قالت أمّ عبير في فرحة مبالغة:

– المحروس الشيخ عامر قال لي بأنّه سيزورنا مساءً لأجل عبير.

همّ عامر أن ينفي كلامها ولكن أباه بفطنته قرأ كلّ شيء فردّ هو مسرعًا:

– عامر لن يستطيع زيارة أحد يا أمّ عبير فهو متعب من السفر، ومازال طالبًا صغيرًا.

فهمتْ منه مراده تمامًا، ولكن حرصًا منها على ألّا تعود للخلف خطوة، بادرته قائلة بمنتهى البساطة والحماس:

– يأتي وقتما يروق له، سننتظره العمر كله.

وبعد أن تناولت مشروبها وانصرفت نظر الوالد لولده الذي تنحنح بحرج قائلًا:

– لقد فهمت مقصد الزيارة خطأ.

ربّت الوالد على كتف ولده بحنان قائلًا:

– قمْ لتنال قسطًا من الراحة، وعند استيقاظك سوف أستمع منك لكلّ التفاصيل.

***

صافح عامر كلّ من بالمسجد وتقبّل عناق بعضهم على مضض وهو يشعرُ نحوهم بالشفقة؛ فكلّ هؤلاء يعلم أحوالهم الاقتصادية بمنتهى الدّقة، بعضهم مثقلٌ بالدّيون والآخر يعيش بالكفاف، وهذا الأخير لولا بعضُ المساعدات الخفيّة وغير المباشرة لما كان على قيد الحياة حتّى الآن، مِن أين لهم بهذه البسمة والفرحة التي لا يراها حقيقية أبدًا، كلّ هؤلاء ينتظرون النعيمَ المقيم في الجنّة وفقط، الموت الذي يهرب منه الجميع؛ هو بداية الرحلة التي يترقبونها رغم تخوّفهم منها!

أيّ حياة هذه؟!

خرجَ من المسجد بروح خاوية، ورغم استمتاعه بصلاة الجماعة التي افتقدَها طوال الشّهر المنصرم، ولكن لم تكنْ بالخشوع الذي توقعه، أثناءَ حركاته من سجود وركوع شغلته أسئلة ما كانت لتطرق باله من قبل، ما السّر أنّ تراكم الثروات والنفوذ يكون باليد الخطأ دومًا؟

هل الورع والإيمان يستوجبان الفقر ليسكنا القلوب؟

وكأنّما كان أبوه يقرأ ما يجول بخاطره؛ فبعد انتهائه من تسبيحه المعتاد عاجله قائلًا:

– أعلمُ بأنّك في حالة تخبّط الآن بعد أن رأيت النعيم وأهله، ولكن كلّ شيء عند الله بمقدار يا ولدي، وهو سبحانه قد قسّم الأرزاق بمنتهى العدل، وكلّ منّا يحصل على ما يستحقّ تمامًا.

همّ عامر أن يطلق كلّ أسئلته التي جالت بخاطره، ولكن يعلم بأنها ستفتح بابًا من الشّك داخل صدر والده؛ قد تغلق كلّ ما تفتح له بالفعل، مازال يذكر نظرته المتعجّبة لملبسه وهيئته حين عودته، لو استشعرَ أبوه بأنّ هناك خطرًا عقائديًّا أو أخلاقيًّا يهدّده فقد قضي الأمر وماتت رحلته في مهْدها؛ لذا أصبح سعيه الآن أن يُظهر لأبيه بأنه متماسكٌ صلب لمْ ولن تؤثّرَ فيه أيّ ثقافات أخرى، بل سيظل على تربيته ومبادئه التي زرعها فيه.

وأخيرًا استقرّ بهما المقام ليبدأ عامر في طرح ما لديه على والده، وهو يعلم بأنّ ما بدأت به هذه الجلسة أبدًا لن تنتهي به!

حدّثه عن رحلته وعن رقيّ التعامل والبلد هناك؛ نقيض ما هو معروف عنها إعلاميًّا، وأنّه لتميزه استطاع أن يفوز بمنحة دراسية مجانية في أعرقِ الجامعات هناك، وأنّ أحدَ كبار رجال الأعمال تبنّاه لتميزه ووافق أنْ ينتقل الأبُ للعيش برفقته حتّى تنتهي دراسته، بل زادَ في العطاء بالموافقة على منح عبير فرصةَ دراسة الصيدلة في نفس الجامعة على نفقته الخاصّة!

انتهى عامر من حديثه الحماسي ورموشه تتردّد بسرعة وقوّة وهو يتوجس من ردّة فعل أبيه، توقّعه الكبير أنه سيرفض المغادرة ويوصيه بتقوى الله وأنْ يعود محمّلًا بعلم كبير ينتفع به.

ولكنْ طال صمت الرجل وهو موطئ الرّأس لا يرفع بصره، ودقات قلب عامر صوتها يزعجُ بعض الجيران وهي تتقافز بتسارع كبير!

وأخيرًا رفع رأسه وحاجبيه، وبمنتهى الهدوء قال:

- ارتدِ زيًّا مناسبًا بدلًا من هذا الجلباب ولتتعطّر سنخرج سويًّا الآن.

زاد توجّس عامر ووصل إلى الذروة، لأوّل مرّة يجهل ما ينتويه أبوه!

فقال له بتردّد:

- إلى أين سنذهب الآن؟

- ستعلم حينما نصل إليه.

حتمًا سيذهب به إلى شيخ المسجد ليوصيه ويذكّره بتقوى الله وبعض الأحاديث النبوية التي تحثّ على التمسك بالعقيدة وعدم الانجرار خلفَ المغريات الدنيوية مهما كثرت، لا مانع من ذلك المهمّ أن ينال موافقته في النهاية!

سارَ برفقته وهو يحدّثه عن جمال المدينة التي نزل بها ونظافتها ونظامها، والأب صامت لا يتفوّه حتّى بأيّ من الأذكار التي يعرفها، ووصلت دهشة عامر إلى الذّروة عندما طرق أبوه الباب الذي توقف عنده، فسأله بمنتهى العجب:

- ماذا؟ لمَ نزورهم الآن؟

سبقَ إجابة أبيه الباب الذي انفتح مع صوت جهْوري يتساءل عن الطارق، ولكن توقّفت هي كذلك في دهشة وصمتت ثوان، ثمّ قالت:

- يا مائة ألف مرحبًا.

وبكلّ هدوء الدنيا نطق الأب قائلًا:

- هل تحفظين الفاتحة يا أمّ عبير؟

***

كان عامر جالسًا على طرف فراشه، وهو منحنٍ للأمام قليلًا، وواضعًا رأسه بين يديه، ورغم سكونه التّام إلّا أنّ الكثير من العواصف كانت تهدر داخل تلك الرأس التي يحاول احتواءها بين كفيه.

لو جاءت هذه الزيارة قبيل سفره إلى كولومبيا لطارَ بها فرحًا، وامتنّ لوالده عظيم الامتنان، ولكنْ في خلال شهر واحد تغيّر مردودها إلى النّقيض تمامًا!

هل كلّ أحلامنا نسبية إلى هذه الدرجة؟!

الآن تمّت خطبة عبير إليه خطبة رسمية لا يستطيع الإفلات منها أو معارضة أبيه فيها، فلو رفض فقد انْتهت أحلام كولومبيا كلّها وتبخرت تمامًا لأنّها- بالطبع- ستدخل إلى خانة المنْع التّام من الذهاب إليها، ولو قبِلَ أو سكت بمثل ما فعل ذاهلًا هناك منذ قليل؛ تبخرت كذلك أحلامُ كولومبيا، فجيفيد ما فعلَ كلّ ذلك إلّا لرغبته في الفوز به لابنته! والآن لم يعدْ هناك أمل في ذلك بدخول عبير إلى الصّورة، وبالطبع لن يحصلَ على شيء ممّا وعده به، هذا إن لم يعاقبه!

ما الحلّ الآن؟ ولِمَ فعل أبوه به ذلك؟ هل خشي عليه من الفتنة هناك فجعل تحصينه بالزواج حماية له ممّا قد يقع فيه؟

حتمًا هذا ما ذهب إليه، ولم يدرِ أنّه بذلك إنّما حطم كلّ الجسور التي قد يعبرها عامر إلى برّ تحقيق أحلامه الخيالية.

عادا صامتيْن، كلّ منهما يسرح في ملكوته الخاصّ، وإن كان أبوه قد عادَ إلى التّمتمة بأذكاره وتسبيحاته التي اعتاد عليها، ما الحلّ للخروج من هذا المأزق؟

لقد كان ظنّه بأن منح عبير فرصة الدّراسة للصيدلة هناك ورعايتها حتّى يشتدّ عودها ثمنٌ كافٍ للهروب من الأجواء التي زرعها فيها أدت الى ارتباطها به، ولكنْ وبخطوة غير مسبوقة أصبح الارتباط أقوى من مجرد ارتباطٍ شعوري وفقط، كيف يهرب منه، وبطريقة تتيح له استكمال مسيرته التي خطّ فيها أولى خطواته؟

ليسَ هناك أيسر من المواجهة الصريحة مع أبيه، ستريحه من عناء التّفكير المرهق له لأبعد مدى الآن، لهذا انتصبَ واقفًا وفي عينيه عزم كبيرٌ على حسم الأمور كلّها ليعلم ما هي الفرص المتاحة أمامه فيما بعد.

طرقَ باب غرفة والده الذي ردّ عليه ليدخلها بعد إذنه، وإذا به في فراشه ممسكًا بكتاب من دفتيه وما إنْ ولج عامر إليه حتّى نزع نظارته ووضعَها مع الكتاب جانبًا وهو يقول:

- أهلًا يا عامر، تعال يا ولدي.

تردّد عامر وقد خبا العزم بداخله، وسار بخطوات بطيئة حتّى جلس على طرف الفراش في مواجهته وهو يقول له:

– لِمَ فاجأتني ووضعتني في أمرٍ لم يكن بحسباني ولم أستعدّ له؟

نظرَ الأب نحوه بعمق، وصمت قليلًا، ولكي يحسم الأمور قال:

– هل لديك شكّ ولو لوهلة يا عامر أنّي لا أفعل إلّا الصالح لك؟

– بالطّبع لا، ولكن..

– يا ولدي، لقد رأيتك تنزلق ببطء نحو مسار نهايته معلومة للجميع إلّا شخص واحد تعمي بصره أضواء الإغراء، وهو صاحب الأمر نفسه، صدّقني سيأتي يوم تشكرني فيه على ذلك جزيل الشكر.

– ولكن يا أبي الأمر ليس كما تظن.

– قصّ عليّ القصص وأنا معك لنْ أملّ النقاش حتّى النهاية.

تنحنح عامر وقال بخفوت:

– الحقيقة أنّ رجل الأعمال هذا كان يريد تزويجي لابنته، وطلبي لأجل عبير كان ثمنًا لابتعادي عنها.

ابتسمَ الأب بودّ شديد وقال:

– لو كان الأمرُ محسومًا لديك وليس بداخلك ذرة تردّد نحوه، لما كان صمتك حتّى تنتهي خطبة عبير هكذا.

صمتَ عامر مجدّدًا وهو يشعر بحيرة كبيرة، الأمر كذلك بالفعل، فلم تكنْ لديه الرغبة الحقيقية للارتباط بماريانا، بل عندما تفرّد بالتفكير في هذا الشّأن وحده هناك كان يراه أمرًا مشينًا، كيف يقبل الزواج بمن تخالفه في كلّ شيء، بل ولا يمكن السيطرة على جموحها؟!

لو وضعتْ في مقارنة مع عبير لن تقاربها في أيّ شيء أبدًا، بل جمالها السّاحر، والذي يشاركه الكون كلّه فيه أصبح يزهده بشكل عجيب بعد أنْ رآها شبه عارية في أحضان ذلك الشّاب الذي ضربه، إذا الأمر لم يكنْ رغبة حقيقية منه نحو ماريانا، وإنّما فقط مجاراة لجيفيد في عرضه حتّى لا يفوته كلّ الخيرات التي سيغدقها عليه.

هزّ رأسه بأسى وقال:

- ولكنّ ذلك سيفوت عليَّ خيرًا كبيرًا.

- الخيرُ الذي يخضعك لأن تتلوّث بما يشينك، لا يمكن أن تصفه بالخير أبدًا.

صمتَ عامر وهو يتفكّر في عبارة أبيه العميقة، نعم الأمر كذلك بالفعل، من قال بأنّ الأموال الكثيرة والرفاهية المبالغ فيها هي خير حقيقي، النفس تتوق إليها وهي أحدُ أهمّ فروع زينة الحياة الدنيا، ولكن في رحابِ أبيه المعبّق بالأجواء الإيمانية الجميلة هذه، تنساب إليه ويتوقر في قلبه نفس المبادئ الرّاسخة لدى الأب، راحة القلب وصفاؤه وهدوء النفس واطمئنانها كنوزٌ قد لا تصل إليها مليارات جيفيد.

تنهّد عامر بقوّة، وهزّ رأسه مجدّدًا، وقام وهو يبتسم لأبيه بمرارة قائلًا:

– شكرًا يا أبي.

ابتسم له الأب ابتسامة تحمل كلّ محبته الصافية له، وبعد انصراف عامر إلى غرفته عاد لكتابه مرّة أخرى.

***

كانت الأمورُ تسير بخطوات سريعة لم تخطر لعامر على بال، فقد كان ظنّه بأنّ هناك خطبة سيطول أجلها، ربما حتّى تنتهي دراسته بعد أن يخبر أباه بفشل مشروع السّفر للدراسة في تلك الجامعة الكولومبية العريقة.

ولكنْ من الواضح أنّ الأب كان يعرف جيدًا ما يفعل، فطرق الحديد وهو مشتعلٌ أفضل طريقة لتشكيله حسب إرادته المرجوة، ليخرج بأبهى صورة كما ينبغي، ولهذا تجاهل كلّ الأعراف والتقاليد والأفكار المعلبة عن أمور الزواج، وساعده في ذلك ضعف الحالة الاقتصادية لأسرة عبير ورغبة أمّها في أن ينتهي الأمر سريعًا، ولهذا تحدّد موعد الزواج في خلال شهر واحد دون حفلِ زواج كبير أو شراء شقّة مخصّصة لهذا الزّواج تستلزم تجهيزات خرافية تنهك الطرفين، فكان قوله لأمّ عبير حاسمًا حين قال:

– عبير ابنتي ولن تكلفني أكثر من ملعقةٍ لها أثناء الوجبات، لن يكون لدينا جديد، عامر وزوجته في غرفته، وكلّ ما اعتدنا عليه سيستمر كما كنّا، وأنا كفيل بكلّ نفقاتها مهما استلزم الأمر.

وبالتّالي تمّ الأمر هذه المرّة مصداقًا وتنفيذًا للمقولة الشهيرة أنهم لا يريدون من عبير سوى حقيبة ملابسها.

ارتفعت الزّغاريد للمرّة الثانية، وأصبحت عبير في حكم زوجة رسمية لعامر تنتظر فقط تاريخَ الانتقال من بيت أمّها إلى غرفة عامر!

كان الموعد المحدّد هو الخميس الرابع عشر من أغسطس، سيتمّ عقد القران بالمسجد عقب صلاة العصر، ومساءً وبعد صلاة العشاء ستخرج عبير من محلّ جواهر خبيرة التجميل على حسب ما هو مكتوب على لافتة محلّها الصغير المهترئ، ليصحبها عامر في زفة بسيطة لبضع خطوات من باب المحلّ إلى باب منزله.

عامر مرّ بعدّة منحنيات نفسية خلال هذا الشهر، كان يعانقه الشعور بالخسارة الكبيرة والحسرة البالغة، ولا يدري ما السّر أنّه يوميًّا لا بدّ وأن يصادفه ويقعَ أمام ناظريه مقولات قصيرة لحكماء وعلماء وفلاسفة تتحدّث عن أنّ الفرص لا تأتي إلّا مرّة واحدة، وخاب وخسر مَن تسلّلت من بين يديه دون أن يغتنمها، كان ينظر إلى وجه عبير الصبوح الفرح الناطق بكلّ آيات السعادة فتصبح خناجر تمزّقه وتقف حجر عثرة في طريق انتكاسه عمّا هو فيه الآن، فكم فكّر في محاولة الهروب واغتنام حياته وأحلامه، وبعد حين ستنسى عبير كلّ شيء وتفوز بزوج يناسبها ويناسب حياتها، وأبوه حتمًا بمحبّته الكبرى هذه سوف يسامحه، سيكون ذلك بمثابة انحراف بسيط في حياته بعد حين تعود المياه لمجاريها مرّة أخرى، ولكن لن يخسر ذلك الخسران

المبين الذي ينغمس فيه الآن، ولكن على الجانب الآخر كانت الصلوات الجهريّة كلّها يترنم الإمام فيها بآيات عن أنّ الفوز الحقيقي إنما هو فوز الآخرة، وأنّ الحياة الدنيا إنما هي متاع الغرور!

ولكي يريح عامر بالَه من هذا التمزّق الداخلي، قرّر أن ينغمس بمشاعره في حياته الحالية، وأن ينسى تمامًا أيّ شيء عن كولومبيا ورحلتها المشئومة.

ولهذا أغدق على عبير بكلمات الحبّ والعشق والهيام، وسرح معها في ملكوتٍ صغير خاصّ بهما، بدا يتسرّب إلى نفسه ببطء بالراحة والطّمأنينة، حتماً هذه مشاعر طيّبة راقية لا يمكن له أن يجدها في أي حياةٍ أخرى مهما كانت مترْفة، هكذا أقنع نفسه وتقوّى بذلك في سبيل الرّضا بما هو فيه.

وبدأ مرّة أخرى في التعايش مع مجتمع السيدة عائشة البسيط والتلقائي والطّيب رغم فقره ومساوئه الكثيرة.

واليوم يمرّ عامر بصحبة أبيه على أحد محلّات الملابس المعروفة ليشتري له بدلة فرحته المرتقبة مساء الغد، وبينما عامر يقوم بالتجربة لمعرفة المقاييس المناسبة له، أخذ جوّاله يلحّ بالرنين من مجهول لا يظهر له رقماً، شعر بأنه حتماً جيفيد، آخر شخص يمكن أن يردّ عليه الآن، لهذا تجاهل الرّنين الذي احتوى جواله بإلحاح مرّات تلو بعضها البعض!

وبعد أن هدأ، بدأ الرّنين من رقم مصريّ ولكن مجهول، تجاهله أيضًا لشكّه في أنّه حتماً يتبع جيفيد، قد يتمكّن بقدراته أن يفعل ذلك بأي تكنولوجيا لا يعرفها، وبعد التكرار والتجاهل منه، ارتفع الرنين هذه المرة من جوّال الوالد

الذي لم يشغلْ باله وهلة أيّا من أفكار عامر وهواجسه، لهذا لم يتردّد في أن يجيب المتصل، ليجد مفاجأة عجيبة؛ فقد كان اتّصالًا من أفخم فنادق القاهرة يبلغه بأنّه تمّ حجز قاعة فاخرة به لعرس عامر!

***

كان المشهدُ سيرياليًّا يستحقّ التّسجيل ودراسته بعمق، قاعة أحد الفنادق النيلية التي يستحي عامر أن يمرّ بجوار أبوابها، مليئة بوجوه وأشخاص لا يصدّق العاملون بالفندق أنّ هؤلاء يمكنهم الوجود هنا يومًا!

كانت الدّعوة لأهل المنطقة من باب اغتنام مأكلٍ ومشربٍ ثري وصحيّ لمرّة في حياتهم، ولتكن هذه هي وليمة العرس على حسب نية والد عامر، ولكنّ الأمور خرجت عن السيطرة تمامًا، فمع غياب الفرقة الموسيقية التي رفض الأب مجيئها، وألغى تعاقدها، حاول المدعوّون ردّ الجميل بطريقتهم، فانطلق النساء يتراقصن ويزغردن ويحاولن الغناء بأصواتهنّ المشروخة بشكل جماعي، والرّجال قاموا بواجب توزيع السّجائر وبعض مستلزماتها مع محاولة مسابقة النساء في الرقص، الخلاصة أنّ فرحًا شعبيًّا بامتياز انتقل من الحارة الفقيرة إلى ما فوق السّحاب!

الأمرُ يشبه تمامًا تلك الصور الشّهيرة التي تمّ تركيبها عبر برنامج فوتوشوب لمكوّنات الحارة المصرية حال وجود أهلها فوق سطح القمر أو كوكب المريخ.

الأب فشل في السّيطرة على ما يرفضه، فما كان منه إلّا الطلب من إدارة الفندق التّعجيل بوقت الطعام والتحلية حتّى ينصرف هذا المهرجان بأسرع ما يكون،

وعند خروج العروسين إلى السيارة الفارهة المقدّمة من إدارة الفندق إليهما على حسب التعاقد مع المجهول الذي قامَ بحجز هذه القاعة؛ وقف الكثيرُ من السائحين يلتقطون صورًا لهذا التّنافر العجيب الذي يظهر أمامهم!

وأخيرًا جلس عامر بجوار عروسه وهو يظنّ بأنّ السيارة ستذهب به إلى منزله بحيّ السيدة عائشة، ولكن وجدَها تتحرك مسافة قصيرة لتقف أمام فندقٍ آخر تزيد عددُ نجومه عن سابقه!

وعندما سأل السائق عن سرّ ذلك، أخبره بأنه لا يعلم سوى أن غرفتهما محجوزةٌ بهذا الفندق، ولا يدري ما السّر في عدم حجزها في الفندق السابق.

هذه هي ألاعيب جيفيد، ترى ما السّر وراءها؟

هل سيقتلهما هنا انتقامًا من فراره؟

ولكن لم كلّ هذا التّعقيد والبذخ والإنفاق غير المبرر؟!

حاول الرفض والطلب من السائق أن يقلّهما إلى منزله بحي السيدة عائشة، ولكن تشبّثت عبير بذراعه وهي ترجوه الموافقة على الدخول لاغتنام هذا الحجز؛ فإن كان قد قبلَ بالحفل في فندق فلم يرفض الإقامةَ في آخر؟!

فدخل مرغَمًا ووقفا أمام موظّف الاستقبال الذي رحب بهما بآلية دبلوماسية ومنحهما البطاقة الإليكترونية لباب الجناح الذي تمّ حجزه لهما.

صحبَهما أحد العاملين إلى المصعد، ومنه إلى حيث سيمكثان، وعبير تهمس لعامر قائلة:

- ما كلّ هذا؟ هل ينعم بعضُ البشر في حياتهم هكذا؟!

أشار لها عامر لتصمت حتّى يصلا إلى حيث تفردهما، وما إن دخلا الى الغرفة أخذ العامل يرحّب بهما ويغدق بكلمات التّبجيل، وعامر يتصبب عرقًا فليس معه ما يمنحه له، وأخيرًا انصرف العامل بعد أن أدرك الأمر.

وقف عامر بمواجهة عبير وهو ينظر نحوها بعمق ويبتسم ابتسامة تلتهم جميعَ وجهه دون كلمة، نظرت نحْوه بصمت ثمّ هربت بعينيها حياءً.

فردّ عامر ذراعيه وهمّ أن ينطق ولكنْ قاطعه صوت جيفيد القادم من الدّاخل وهو يقول له بالأسبانية:

- مبارك زواجك أيها العريس.

شهقت عبير بفزع وهي تتراجع للوراء، في حين ارتعد عامر رعدة خفيفة لشدّة المفاجأة، ونظر باتجاه قدوم الصّوت ليجد جيفيد جالسًا واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ومسترخ بظهره للخلف، ومبتسمًا ابتسامة غامضة عجيبة!

رغمًا عنه شعر عامر بالغضب الشديد وهو يجذب عبير من ذراعها لتكون خلفه وهو يقول بصرامة:

- رائعة هي ألاعيبك تلك، أين رجلك المختفي بسلاحه لينهي الأمر؟

ارتفع حاجبا جيفيد واتّسعت عيناه في دهشة مصطنعة وهو يقول:

- ألاعيب وسلاح! هل هذا هو عهدك بي؟!

- لِمَ فعلت كلّ ذلك؟

- قلتُ لك من قبل أنت مميّز جدًّا، ولك مكانة خاصّة جدًّا عندي.

أشار عامر بذراعه وهو يقول:

– حسنًا، لقد انتهى الأمر كما ترى؟

قال جيفيد بدهشة حقيقية:

– أيّ أمر هذا الذي انتهى؟

– لم يعدْ بإمكاني الفوز بابنتك.

ابتسم جيفيد بحبور وقال:

– رائعٌ كعادتك، ولكن لم يكنْ هذا هو هدفي الأكبر معك.

صمتَ عامر بحيرة ودهشةٍ بالغتين وقد فاجأه جيفيد بآخر ما يمكن أن يخطر بباله، وقبل أن يستطرد في أفكاره وظنونه قاطعه جيفيد قائلًا:

– أحببت أن أهنّئك لزواجك بطريقتي، أعتذر لمفاجأتك بهذه الطّريقة، ولكنه كان ضروريًّا بالنسبة لي، طائرتي سوف تنطلق بعد ساعتين، دراستك أنت وزوجتك سوف تبدأ بعد عشرين يوم، لا تتأخّرا عنها.

وببسمةٍ لطيفة وبعينيْن تفيضان حبًّا وتقديرًا ربّت جيفيد على كتف عامر وقال له:

– اعتذرْ لعروسك وأبلغها مباركتي وسلامي.

وأخيرًا انطلق جيفيد وعلى نقيض ما أراد تمامًا، فقد فجّر قنبلة أفسدت على عامر أجمل ليالي عمره!

***

للمرّة الثانية تنطلق الطّائرة من القاهرة إلى مطار دبي في المرحلة الأولى من رحلتها الطويلة إلى كولومبيا، والتي تختلف هذه المرّة بشكل تام في كلّ شيء.

بعد أسبوعين فقط من حفل الزفاف انتهت كافة إعدادات السفر، وأصبحت السماء ممهّدة لنقل الثنائي السعيد إلى بوابة المستقبل الذي لم يحلموا به يومًا.

كانت دهشة عامر بالغةً عندما اتّصل بوالده من الفندق ليخبره بسبب عدم عودته إلى البيت برفقة عروسه ليجده على علم بذلك، وأنه يتمنّى له السعادة طوال هذا الأسبوع المحتجز له بالفندق!

وكان ذهوله قد بلغ الذّروة عندما عاد وفي رأسه كافّة احتمالات رفض أبيه للسفر وقد أعدّ لها بعض الردود التي تلين رأسه؛ فإذا بأبيه على علم بذلك أيضًا، وعلى النقيض تمامًا فقد كان على ترحاب شديد بسفره طالما أنَّ زوجته معه، وأنه سيراعي الله فيها وفي نفسه!

فجأة تغيّر كلّ شيء إلى النقيض، قبيل الزواج كان في حيرة من أمره ووضعَ ألفَ خطة للهرب من تلك الزيجة، وعلى الطرف الآخر استعان بألف وسيلة للثبات وعدم النّدم في حال تمامه!

وها هو بمجرّد الزواج تأتيه الرياح بأكثر ممّا اشتهى وتمنّى!

حاول النقاش مع أبيه عن سرّ تغيّر موقفه المفاجئ والعجيب، ببسمة هادئة يقول له بأنّه قد اطمأن عليه ولم يعدْ لديه أية مخاوف من سفره المفاجئ والطويل هذا، وعندما عرض عليه الصّحبة حتّى لا يتفرقا ولا يوجد داع

للبقاء بعيدين تمسّك أبوه بالمكث في حيّ السيدة عائشة والموت فيه على حسب قوله.

نظرَ عامر نحو عبير بودّ وهو يقول لها:

– هل قلت لك من قبل أنّك وجه السعد والفرح لي؟

ابتسمت عبير بسعادة وهي تقول:

– بل أنت وجه الخير كلّه، فما كنت أحلم بذرة واحدة مما وصلتُ إليه الآن، كانت أقصى أمانيَّ نظرة رضا واحدة منك فقط!

ضمّها عامر إليه بقلبٍ يحمل لها كلّ الود، لكن يزاحمه دبيب خوف من القادم المجهول.

***

كان عامر سعيد جدًّا باتّساع عيني عبير انبهارًا وذهولًا بكلّ ما تمر به في رحلتهما، والتي انتهت أمام باب القصر الذي بدأ في الفتح آليًّا وهي ملتصقة به في الكرسي الخلفي بالسيارة، وأصابعهما تتعانق بقوة وودّ متبادل، وأخيرًا استقرّت أمام الباب الزجاجي الداخلي وهبط عامر أولًا ومدّ يده ليساعد عبير في النزول، وعندما التفت كان جيفيد يقف بنفس سرواله القصير وسترته الملوّنة وبسمته الواثقة المنتصرة، وبجواره ماريانا بملبسها الخفيف والقصير جدًّا، كانت تحدق بقوة نحو عبير وحاجباها مرتفعان في استنكار واضح، وأخيرًا اندفعت نحو عامر لتحتضنه وتتعلّق برقبته وقد ثنتْ ساقيها

لأعلى نحو الخلف، وأخذت تقبّل وجنتيه وهي ترحّب به في حفاوةٍ ومبالغة واضحة، وبنفس العينين الذّاهلتين باتساعهما الكبير؛ وقفت عبير وهي لا تدري كيف يمكنها شدّ هذه المأفونة من شعرها لتلقيها أرضًا!

وعامر في حرج وحيرة كبرى كذلك، وعندما حاول فكّ ذراعيها التصقت به أكثر، حتّى أنقذه جيفيد وهو ينادي عليها بنظرة معاتبة أن ترحّب بزوجة عامر، فالتفت نحو عبير ومدّت أطراف أصابعها وهي تنظر نحوها باستعلاء وقالت لها:

– أهلًا بك.

ثمّ انصرفت مسرعة نحو الداخل.

وكالعادة أثقل جيفيد كتفَ عامر بذراعه القوية وهو يصحبه إلى الداخل برفقة عبير التي لم تنفكّ عقدة حاجبيها الصّامتين بعد.

***

– لو سمحت أريد العودةَ لبلدي.

نطقتها عبير بمنتهى الغضب المُشتعل بها، وعامر يضحك ويقول لها:

– لم تمرّ علينا خمس دقائق بعد، فماذا ستفعلين في القادم؟

بمنتهى الثورة قالت:

– يبدو أنّك تعلم بأن القادم أشدّ عُهرًا ممّا فات، ترى إلى أي مدى وصلت معها قبل عودتك إلى مصر؟

– والله لم يحدث أي شيء.

احتضنها عامر رغمًا عنها، وهمس لها قائلًا:

- ما رأيك أنّها فعلت ذلك لأنها تغار منك بشدّة.

رغمًا عنها أسعدها هذا التّبرير، ولكن قالت باستنكار:

- وكيف هذا إن شاء الله؟

- حسنًا سأقصّ عليك سرًّا؛ لقد كان أبوها ينتوي تزويجها لي، ولكنّي اخترتك أنت وفضّلتك على كلّ بنات الدنيا.

عقدت حاجبيها غير مصدّقة، وهزّت رأسها بعنف قائلة:

- كيف يُعقل هذا؟! يريد تزويجك ابنته فترفض- مع عدم اقتناعي برفضك هذا- فيقبل بإقامتك أنت وزوجتك الأخرى عنده، وينفق عليكما ببذخ هكذا، ما هذا الخبل؟!

قال عامر بحيرة أشدّ مما اعتمل بها:

- والله أنا نفسي لا أصدّق مثلك، هناك سرّ كبير خلف كلّ ذلك، أتمنّى معرفته.

نزعت نفسها من بين ذراعيه وقالت:

- حتّى وإن ارتضى هو بذلك، كيف تقبلها أنت لنفسك.

نظر عامر نحوها بحبور؛ فرغم فقرها والحاجة التي كانت تعيش فيها إلّا أنّ لديها ما هو أثمن من مجرد المأكل والمشرب، حسدها لشعورها هذا،

فهو لم ينظرْ إلى الأمر إلّا من باب اغتنام الفرص وفقط، رغم عدم إدراكه لأغراض هذا الرجل الذي ينفق ببذخ وكرم لا مبرر حقيقي معروف لهما.

لهذا أمسك بيديها وقال:

- أنت ملاكي الذي جاء معي ليحفظني من كلّ شيء؛ سوف أعملُ معه في شركاته بجوار دراستي، وأعدك عندما يمكنني الاستقلال عنه تمامًا لن أتأخر في السعي له.

نزعت يديها بقوّة وقالت بصرامة:

- وهذه الرّاقصة إيّاك أن تلمسك مرّة أخرى.

ضحك بقوة وقال عابثًا:

- سأحاول.

ضربته في كتفه بقبضة واهنة وقالت:

- سترى إنْ فعلتها.

***

نجح عامر في امتحان اللغة الذي يؤهّله لبدء الدراسة مباشرة في العام الأوّل بكلية التواصل الاجتماعي في جامعة سانتو توماس العريقة، في حين تمّ الاشتراك لعبير في برنامجي تعليمي مكثف لدراسة اللغة الأسبانية حتّى يمكنها بدء الدّراسة في كلية الصيدلة، كانت الأمور تسير بسلاسة مع بعض

المناوشات الأنثوية بين عبير وماريانا، وتبقّى يومان على بدء الدراسة بالنسبة لعامر، فطلب منه جيفيد الاستعداد لرحلة طويلة ستدهشه وتسعده، وعندما سأله عامر عن وجهتها، ابتسم بغموض وقاله بأنه يفضّل كونها مفاجأة له، وكانت دهشته عندما رفض مجيء عبير معه، وطلب صحبته هو فقط، لأنّ الرحلة وإن كانت ترفيهية إلّا أنها ستكون مرهقة وقاسية!

وفي المساء انطلقت بهما الطائرة الخاصّة الصغيرة لتحلق بالأجواء، لتصل إلى إحدى المدن البرازيلية الصغيرة؛ مدينة "موجي" التابعة لمقاطعة ساوباولو، كان المبيت في فندق بوسط المدينة يسمى مارسالا، وفي الصباح الباكر صحبه في جولة بأرجاء المدينة التي أدهشته بهدوئها وجمالها ونظامها ونظافتها ورقيها، وكذلك الخضرة التي تطولها العين أينما امتدّ بها البصر، ولم يختلف الشعب البرازيلي كثيرًا عن جاره الكولومبي فيما تميّز به من مودة وطيبة وتواضع في المعاملة خاصّة مع الغرباء، وذهبا لتناول وجبة الغداء في أحد المطاعم داخل المجمع التجاري الكبير القريب من الفندق، وبينما يجالسه جيفيد على الطاولة النظيفة والأنيقة، انتظر عامر أن يأتيه النادل ليسأله عما يتناول، ولم يحدث، فسأل جيفيد مازحًا وقائلًا:

- هل ستطول بنا الجلسة هكذا؟

ابتسم جيفيد بهدوء وقال:

- انتظر قليلًا، عندي لك مفاجأة ستسعدك.

ضحكَ عامر قائلًا:

- متى ستنتهي مفاجآتك.

– لن تملّها، ولن تتوقف.

– أرى ذلك.

وارتفع حاجبا عامر دهشةً فعلية عندما رأى ذلك الثالث القادم نحوهما وهو يبتسم لجيفيد، بينما اعتدل الأخير استعدادًا لمقابلته، فقد كان رجلًا بسيطًا هادئًا ذا ملامح مصرية خالصة، يرتدي قميصًا مخططًا بالطول، وفوقه سترة بنية سميكة مع بنطال أسود واسع وينتعل حذاء بسيطًا، وببسمة صافية ووجه أبيض يشعّ نورًا وصفاء التقى جيفيد وعانقه بقوّة كأنهما هما صديقان حميمان، ورحّب بجيفيد بقوة ولكن بالبرتغالية التي فهمها الأخير، وأشار نحو عامر قائلًا:

– رحّب بعامر فهو مصري مثلك.

نظرَ نحو عامر ببساطة ولكنْ بدهشة وتساؤل، وقال بالعامية المصرية:

– أهلًا يا عامر، لقد أنرت البرازيل كلها.

صافحه عامر مندهشًا فرحًا، ردّ عليه بالعامية كذلك قائلًا:

– أهلًا بك يا..

رغمَ العامية المصرية لكنْ أدرك جيفيد تساؤلَ عامر فأكمل له قائلًا:

– هذا هو الشّيخ حسني إمام المسجد بهذه المدينة.

– أهلًا بك يا شيخ حسني، سعيد جدًّا لملاقاتك، كيف تعرف جيفيد؟

بنفس بسمته الجميلة نظر الشيخ حسني نحو جيفيد وهو يقول مازحًا:

– يسألني كيف أعرفك.

مبتسمًا ردّ جيفيد قائلًا:

– ومَن الذي لا يعرف الشيخ حسني هنا؟

تناولا الغداء وصحبهما الشيخ حسني إلى مسجد المدينة الأنيق شاهق المآذن والملحق به مدرسة للغة العربية وبعض الفصول التعليمية لأبناء العرب المقيمين بالمنطقة، حانت صلاةُ العصر، فاستمتع عامر بسماع الأذان لأوّل مرّة في هذه القارة؛ ذلك الأذان الذي يشكّل خلفية طبيعية تطوق الآذان في مصر ليلَ نهار ولا تُدرك قيمته، كانت سعادة عامر غامرة وهو يلتهم كلّ حرف فيه بأذنيه ويشعر بأنّه لا يطرقهما وفقط، بل كان يعزف نغمًا شجيًّا على أوتار قلبه، منبهرًا سأله عامر قائلًا:

– مع كلّ هذه الفخامة والاتّساع، هل يتزاحم المصلون فيه؟

– لن يأتي الآن أكثر من سبعة أو عشرة أفراد، وكثافته في صلاة الجمعة لا تتعدّى المائة فرد، ولكن دور المسجد هنا ليس الصّلاة وفقط، فهو مؤسّسة للحفاظ على الهوية والدين، وهيئة اجتماعية ترعى أبناءها في شتّى المناحي، بجوار أنه منبر دعوي كبير، بعد أحداث الرّسوم المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، جاءنا آلافٌ يطلبون كتبًا تعريفية بالحبيب عليه أفضل صلاةٍ وتسليم، وكانت سببًا في معرفة أغلبهم معرفة حقيقية بالإسلام.

- ولكن ألا تعاني من التّضييق عليك في هذه الأنشطة؟!

ابتسم الشيخ حسني بألم، وقال:

- سأقصّ عليك موقفًا واحدًا يخبرك بحقيقة الوضع، عندما تمّ انتخاب عمدة جديد للمدينة، ذهبت للتعرف عليه وتهنئته، سألني إن كان لي مطلبٌ يخصّ المسجد، فقلت بأنه يقع في أطراف المدينة ولا تمرّ عليه مواصلات عامة، فخصص حافلة تصلُ إليه، ولكن بمعدل مرّة كلّ ساعة لقلّة روّاده، الحافلة منذ عامين مازالت تحافظ على جدولها رغم أنّ روّادها في اليوم قلة قليلة جدًّا.

- ما هذا الجَمال؟! هذه البلاد تدهشني جدًّا.

- أمريكا اللاتينية كلّها كنز كبير لا يدركه إلّا اللبنانيون.

همّ عامر أن يستطرد في حديثه، ولكن قاطعه رنين جوال الشيخ حسني، فتركه يردّ على مكالمته والتفت إلى جيفيد الجالس باسترخاء شديد مغمضَ العينين وعلى شفتيه بسمة خفيفة يراها بسمة ظفر لشيء خفيّ لا يدركه، كم يتمنّى أن يسبر غورَ هذا الرجل؛ والذي يثق بأنه ليس بهذه البساطة والهدوء اللّذيْن يظهران عليه أبدًا.

همّ أن يسأله عن هدف الزيارة الذي لم يدركه حتّى الآن، ولكن قاطعه الشّيخ حسني الذي أنهى مكالمته وهو يقول لهما:

- طبيب مصري زوجته تضعُ مولودًا في مستشفى سانتا كازا سوف...

قاطعه جيفيد قائلًا:

- سوف نأتي معك.

سأله عامر قائلًا:

- هل تشاركهم كلّ مناسباتهم حتّى لحظات الولادة؟!

- هذا أحد أهمّ واجباتي ومصدر سعادتي، سوف نصلي العصر بعد قليل ثمّ نذهب إليه.

وبعد نصف الساعة كان الرّواد بالفعل خمسة فقط، فأقيمت الصلاة، وجيفيد جالس على كرسيه بالخلف ينتظرهم، ثمّ تحرّك الجمع إلى المستشفى ليجدوا طبيبًا مصريًّا يقف مع طبيبتين برازيليتين يمازحهما قائلًا:

- د. جيسيكا ود. جابرييلا سوف أخلّد اسميكما في إحدى رواياتي.

ضحك الشيخ حسني قائلًا:

- وما الداعي لذلك؟

عانقه الطبيب بفرحة مرحّبًا به، وسلّم على عامر وجيفيد متسائلًا، فقام الشّيخ حسني بتقديمهما إليه، وعرَّف الطبيب قائلًا:

- د. أمجد السعيد عماد طبيبٌ مصري في بعثة عمل، وهو كاتب روائي مجهول جدًّا، يظنّ أن مجرد ذكر اسم الطبيبتين في رواياته الضعيفة سيحقّق لهما المجد.

ضحك الطبيب بقوة وهو يقول:

- تستحقّان المجد بالفعل، ستتمّ ولادة أميرتي على أيديهما، و..

همّ أن يستطرد ولكنْ نادته إحدى الطبيبات ليرافقها إلى الداخل؛ فقد حانت اللحظة المرتقبة، فاستأذنها ليدخل معها الى قاعة الولادة، وجلس البقية بالخارج ينتظرون خروج حياةٍ من حياة؛ في مشهد رباني يحدُث كلّ دقيقة ولم يدرك البعض مدى إعجازه بعد!

وفي تمام الخامسة وأربع دقائق غشيت الأجواء أنغامٌ شجيّة على شكل بكاء الوليدة، وعند ظهورها برفقة أبيها الذي لا يكاد يخطو على الأرض، بل كان يحلّق في سماء خاصّة به من السعادة والبهجة التي أنسته كلّ ما حوله حتّى اسمه، كانت عيناه دامعتيْن وهو لا يكاد يصدق بأنّه يحتضن وليدته في مشهدٍ مهيب تعجّب له عامر بقوة ولم يتفهم دواعيه، هل سيحدث له هذا عندما يرزق بالذرية فيما بعد؟

هل لهذا يتعامل جيفيد مع ماريانا بهذه المشاعر العجيبة؟

هو يدرك محبّة أبيه القصوى له، ولكن ما السرّ أن مشاعر الأبوة نحو البنت تكون متضاعفة لهذه الدرجة؟!

وأخيرًا عندما استفاق أمجد بعد انتزاع صغيرته منه ليتمّ وضعها في الغرفة المخصّصة لحديثي الولادة داخل مهدها الأسطواني، بارك له الجميع، وعندما سأله الشيخ حسني عن أيّ اسم سيختار لها؟

أجابه بأنها جاءت تلبية لدعوة مخلصة له في صلاته أن يرزقه الله بمريم.

بعد ساعة كاملة من مشاعر جديدة تجسّدت أمام عامر زرعت بداخله أحاسيس سامية؛ جعلته يدرك قيمة الإنسان أيًّا كان دينه أو وطنه، انصرف الثلاثي إلى مقهى قريبٍ لتناول كوبٍ من القهوة البرازيلية المتفردة.

وبعد الكلام الكثير عن مريم وأبيها، اعتدل جيفيد وسأل الشيخ حسني قائلًا:

– لماذا أباح الدين الاسلامي تعدّد الزوجات؟

تنحنح الشيخ حسني وقال:

– هذا أمرٌ يطول شرحه، ولكن لو نظرت نحو زوجات النبي صلّى الله عليه وسلّم، وأسباب تعديده قد تدرك الحكمة ومسوغات ذلك.

– الشّرائع والقوانين في بلادنا تمنع ذلك وتعاقب فاعله، فهل إذا كان لرجل زوجة مسجّلة، وتزوّج الأخرى دون وثائق رسمية، هل هذا مقبول في الدين الإسلامي؟

– التّوثيق الرسمي لحفظ الحقوق، فإذا كان الطرفان متّفقيْن على ذلك، وهناك ضمانة أخرى للحقوق، لا يوجد أي مانع.

نظر جيفيد نحو عامر وقال له:

– ما رأيك في هذا الكلام؟

ارتفع حاجبا عامر لأقصى مدًى لهما، واتّسعت عيناه على حسب ما اعتادَ مع مفاجآت جيفيد المستمرّة وهو يتساءل بداخله قائلًا:

– هل هذا هو الغرض من الرحلة؟!

***

طوال رحلة العودة الطويلة استرخى جيفيد في كرسيه الذي عاد بالخلف لمنتهاه ليصبح كسرير، وبإغماض عينيه لم يدرِ عامر هل هو نائم أم يتظاهر بذلك، فسرح هو في خيالاته ومن خلال النافذة المجاوره له وفي ظلام الليل بدتِ الأضواء البعيدة القادمة من أسفله كشذرات ماسيّة لامعة وسط ثوبٍ مخمليّ أسود على مدّ البصر.

في كلّ مرّة ينظر فيها عبر نافذة الطائرة يدرك حقيقة راسخة ولكن لا يلمسها بهذه القوة إلّا في هذا الحال، وهي مدى ضآلة الإنسان الذي يتضخّم ويملؤه الشّعور بأهمية كبرى كاذبة، فمِن أعلى يظهر حجمه بأقلّ من ذرّة رمل يحتاج لمنظار مكبّر كي يدركه الناظر إليه!

وكذلك هي المشاعر التي تعتمل بعامر الآن، رغم احتوائها لكل تفكيره إلّا أنّه يراها الآن مجرّد ذرة في كون مليء بصراعات وأحلام ومخطّطات لا حصر لها.

عندما سأل جيفيد عن غرض الرحلة، وهل كان المقصود بها الوصول لفتوى الشيخ حسني السابقة، ضحك جيفيد قائلًا:

– يمكنك أن تعدّها كذلك، ولكني لا أطالبك بها.

جملةٌ مراوغة تناسب ثعلبًا كجيفيد، الرجل يوارب الباب ويقول له (مسموح لك بالولوج إذا أردت) إذًا هذا هو سرّ إصراره وسفره وكرمه الحاتمي عندما أنفق على زواج ودراسة الثنائي عامر وعبير، الرجل مازال طامعًا فيه لابنته بإصرار عجيب لا مبرّر له من وجهة نظر عامر، العجيب أنّه كلما ازداد إصرار جيفيد كلّما ازداد زهد عامر فيها!

فعلى نقيض بداية معرفته بها، عندما كانت حلمًا بعيدًا صعب المنال، كان عامر مستعدًّا لفعل الأعاجيب ليفوز بها؛ مبرّرًا ذلك بمحاولة هدايتها وأبيها!

أمّا الآن، وعندما أصبحت طوعَ بنانه رغم تميزها الفائق؛ إلّا أنه أصبح مختلقًا لكثير من الأسباب التي تمنعه من ذلك؛ منها عدم التوافق أو ارتباطه القوي وواجباته نحو عبير، تلك الأخيرة التي لم يعدْ لها الآن سواه،كيف يمكنه كسر قلبها في غربة تتطلّب رعايته الشاملة والقوية، ومنحها بأكثر ممّا تحتاج من حبّ وحنان واهتمام.

وبعد زواجه انخفضت بقوة رغبته الجسدية كذلك نحو كلّ الفاتنات اللّاتي ينطلقن أمامه أينما توجّه، الآن آمن بأن العفّة بالفعل سبيلها هو الزّواج إذا رافقتها النزاهة وبعضٌ من خشية الله.

ورغمًا عنه ابتسم بقوّة وهو يرى نفسه ذلك المميز المتفرد الذي يسعى إليه رجل بمكانة جيفيد، ويلحّ في تزويجه بابنته التي يرغبها كلّ من يراها!

***

بدأت عبير في الانتظام في نظام دراسة اللغة، ورغم انتظام عامر في دراسته إلّا أنها لم تتنازل عن مرافقة عامر لها في الذهاب والإياب، فكان يجلس بجوار جورمان الصّامت بهيبته المعهودة، وبالخلف عبير تتطلّع عبر نافذتها بانبهار غير منقطع أو متناقص وبجوارها ماريانا يحوطها كلّ آيات التأفّف حتّى تصل إلى مركز تدريبها، ويصرّ عامر على ألّا ينصرف إلّا بعد اطمئنانه عليها، وأنّها قد استقرّت بقاعتها ومعها جوّالها الذي يمكنها به استدعاءه في أيّ وقت، فينطلق مع ماريانا الى نفس الجامعة التي يدرسان بها سويًّا، ويصل إلى كليته التي ظهر فيها بسرعة بوسامته المبالغ فيها وخفّة ظلّه؛ رغم لغته غير الطلقة بشكل كبير، ولهذا كان محطّ أنظار جميع الفتيات الجميلات اللاتي حاولن التقرّب منه، كانت تغامره السعادة لهذا لأنّه الذكر المرغوب دومًا، كانت تراوده فكرة أن يستمتع ببعض المغامرات بصحبتهن بعد أن تحرّر من رقابة أبيه ومجتمعه ووسطه الذي حكم عليه بأن يستقرّ في صورة وهيئة محدّدة لا يمكنه الخروج عنها إلّا بصعوبة، ليس شرطًا أن تصل المغامرات إلى حدّ الكبائر، يكفيه بعض المرح والانطلاق وفقط، ولكن قرب عبير منه كان حصنًا حقيقيًّا له، فماذا لو تعرضت هي الآن لَمن يرغب في صحبتها المبرّرة والطبيعية في هذا المجتمع المنفلت من وجهة نظره؟

مجرّد التفكير في ذلك جعل حممًا من الدم تغلي بداخله.

لهذا كان يواجه محاولات القرب منه بصدّ لطيف، وفي ذات يوم بعد الغداء الذي اعتادوا على التجمّع حوله بأمر من جيفيد لجعله من الثّوابت المقدسة في منزله، وكالعادة لا تنتهي المناوشات الطفولية بين عبير وماريانا،

والتي كانت تسعد عامر بشكل غير مباشر، ولكن كان يضايقه بعضها التي تتجاوز الحدود؛ بمثل ما حدث في المرة الأخيرة عندما نظرت ماريانا نحو عبير بامتعاض، وقالت لعامر أن يخبرها بوجوب تناول حسائها بلا صوتٍ كبير هكذا، تحرّج عامر وهو لا يدري كيف يخبرها بذلك فقال لها بهدوء:

– عبير، هذا الحساء ربّما يكون فيه بعضٌ من الكحوليات فلا تتناوليه.

توقّفت عبير بيدها في المنتصف وتمعضت باشمئزاز وقالت:

– هل أنت متأكّد من ذلك؟ ولِمَ أخبرتك بذلك الآن وهي تنظر نحوي باستحقار هكذا؟!

– ليس استحقارًا، وهي تعرف أنّنا لا نقبله.

– غير مقتنعة بذلك، ولكن هذا الوضع غير طبيعي على الإطلاق يا عامر، يحقّ لهذه الراقصة أن تبيع وتشتري فينا بأموال أبيها.

– الرّجل يرفض عملي حتّى أتفرّغ للدراسة بشكل كامل.

قالت بدهشة:

– تتفرّغ كيف وهو يأخذك في كلّ عطلة أسبوعية إلى جولة في بلد مختلف.

تحرّج عامر من الحديث الكثير غير المبرّر أمام جيفيد وماريانا بلغة أخرى، فقال بخفوت:

– نتحدّث في هذا لاحقًا.

قامت عبير وهي تمسح يديها قائلة:

– حسنًا أنتظرك بأعلى.

نظر عامر بحرج نحو جيفيد وقال:

– لقد شبعت وتريد الذّهاب للحمّام بأعلى.

نظر جيفيد نحوه متفهّمًا حرجه، وقد أدرك بحصافته حقيقة الأمر دون ترجمة، فهزّ رأسه لعبير مبتسمًا سامحًا لها بالانصراف، وما إن اختفت بأعلى حتّى نظر نحو ابنته المنغمسة في أكلها بمنتهى البساطة دون أن تعيرَ الآخرين أدنى اهتمام، وقال لها بجدية:

– لا يصحّ ما تفعليه معها.

وبمثل كلّ مرة تقف ماريانا غاضبة وتنصرف دون كلام مسرعة، فيزداد حرجُ عامر الذي يهمّ أن يعتذر عن صنعه للقلاقل، ولكن يرفع جيفيد كفّه ليوقف حديثه المكرّر، ويؤكّد بمثل كلّ مرة أن كلّ أسباب إقامته ورعايته هو وزوجته لم ولنْ تتغير.

ويصعد عامر إلى الحديث المكرّر مع عبير عن محاولة الاستقلال عن جيفيد هذا وبيته حتّى يهنئا بالحرية، ويكون الردّ بأن هذا هو شرط المموّل، ولا يمكنه الاستقلال عنه، فليس لديه القدرة أن يملك زمام أمره مع النّفقات الهائلة التي يغدق بها جيفيد عليهما!

***

– استعدّ ستصحبني في رحلة خاصّة إلى بلد جديد.

نطق بها جيفيد على سبيل الإعلام، وبلهجة آمرة لا تحتمل النقاش، ولكنّها لاقت هوى في قلب عامر الذي فرح بجولاته المصاحبة لجيفيد، لم يكن يحلم يومًا أن تكون لديه هذه القدرة على التجوال وقتما شاء إلى كافّة دول العالم، يذكر ذاتَ يوم أنه قرأ قصة اصطحب فيها البطل حبيبته من داخل مصر في طائرته الخاصّة، إلى عشاء خاص أعلى برج إيفل في فرنسا، وعادا في نفس الليلة!

كان الأمر بالنسبة له خيالًا مفرطًا ووهنًا كبيرًا في الحبكة والواقعية، ولكنْ ها هو عندما يصيب جيفيد الملل، يناديه ليرافقه في جولة سريعة إلى دولة أخرى ليمرحا أو يسألا شخصًا عن توقيت الساعة لإعادة ضبط التي معه.

ما إن أخبرَ عبير عن ذهابه في رحلة خارجية مع جيفيد، حتّى وضعت كفّيها بوسطها وقالت:

– ما هذا، إلى أين الرّحلة هذه المرّة؟ وما سببها؟

ضحك عامر قائلًا:

– إلى دولةٍ أخرى لا أعلمها، وحتمًا لإنهاء صفقة مخدّرات.

قالت بتوجّس وخوف حقيقي:

– أخشى عليك بقوة يا عامر، ولا أثق بهذا الرجل، كلّ ما يمنحه لنا حتمًا له مقابل كبير.

احتضنها عامر وقال مبتسمًا بحنان:

– لا تقلقي يا محبوبتي الجميلة، يمكننا الفرار وقتما نريد، وها قد مرّ علينا شهران، حياة طبيعية لا شيء فيها، وكل أعمال شركاته التي حضرت اجتماعاتها مشروعة الاستثمارات جدًّا، كلّ ما ننفق هنا مجرّد قطرة في بحر أمواله، قد تكون مجرّد نزوة لرجلٍ ثري تكلفة ما نراه نحن مغارة علي بابا، في حين يمثل له ثمنَ وجبة واحدةٍ فقط.

تنهّدت عبير وزفرت بقوة وهي تقول:

– حاول ألا تتأخّر حفظك الله.

ردّ عمليًّا عليها بما يجيبها بمدى محبّتها في قلبه.

***

كانت الطائرة تسبح فوق المساحات الخضراء التي اعتادت عليها عينا عامر، وألفتها في هذه البلاد الخصبة، وبينما هو سارحٌ في عدم الملل من النّظر اليها، سأله جيفيد قائلًا:

– ماذا تعرف عن بوليفيا؟

اعتدل عامر في جلسته وقال مبتسمًا:

– هل نحن في الطّريق إليها الآن؟

جاوبه صمت جيفيد المبتسم، فاستطرد قائلًا:

– تمّ إطلاق اسمها تخليدًا للقائد والمناضل الكولومبيى والثائر اللاتيني "سيمون بوليفار" الذي ناضل من أجل تحرير أمريكا اللّاتينية من الاستعمار الأسباني.

- رائع يعجبني اطّلاعك هذا، ولكن هل تعلم أنّ كولومبيا التي ينتسب إليها غير التي نحن فيها الآن؟

- كيف هذا؟

- كولومبيا التي حرّرها، كانت قبل تسميتها على اسم (كولمبوس) تسمّى (غرناطة الجديدة)، وكانت تشمل ما تمّ تقسيمه الآن إلى كولومبيا، وبنما، وفنزويلا، والإكوادور، وشمال غرب البرازيل!

اختفت الخضرةُ وظهرت قممُ الجبال مغطاة بالثلج الكثيف، فتساءل عامر قائلًا:

- ما هذه الجبال؟

- إنّها جبال الأنديز.

- أخيرًا رأيتها! فما خرجت من مناهج الجغرافيا عندنا إلّا بثلاث؛ حارّ جافّ صيفا دفيء ممطر شتاءً، وأعشاب السافانا، وجبال الأنديز.

ابتسمَ جيفيد واستطرد قائلًا:

- تلك الجبال التي كان تئوي الثّائر الشهير تشي جيفارا، هل تعرفه؟

اعتدل عامر وقال بحماس:

- بالطّبع فهو شهير جدًّا في منطقتنا، والعجيب في سيرته أنه كان طبيبًا أرجنتينيًّا، ولكنّ بطولاته كلها كانت خارج الأرجنتين، ابتداءً من صعوده

ليكون وزيرًا في كوبا دعمًا لكاسترو، وهو الذي نجح في جلب رؤوس نووية من روسيا والتي تسببت في أزمة خليج الخنازير الشهيرة، وبعدها تكوين العصابات التي كانت تكبّد ذيول السي آي إيه وتابعيهم خسائر فادحة، حتّى تمّ اغتياله في أحراش جبال بوليفيا.

لمعت عينا جيفيد وقال بهمس:

- مدهش.

ثمّ رفع صوته قائلًا:

- أخبرني بما تودّ زيارته في بوليفيا.

- بوابة الشمس.

- ولِمَ هي تحديدًا؟

- بسبب اللّغز الشهير فيها؛ وهي الرّموز المنقوشة عليها، أريد التيقّن بنفسي هل حقًّا تحمل رسومات لإليكترونيات متقدّمة رغم أنّ عمرها أكثر من قرن ونصف، أم أنه مجرّد تشابه عشوائي متعمد إظهاره هكذا للتسويق.

- حسنًا، ولكن سنذهب أولًا إلى الفندق الكبير لمدينة سوكري، وبينما تنال قسطًا من الراحة أنهى صفقتي الكبرى التي جئت لأجلها، ثمّ نذهب الى بوّابة الشمس، ومنها الى زيارة مكان أعشقه أنا بشكل خاصّ، أدّخره لك كمكافأة.

كاد عامر يصفّق بيديه جزلًا وهو يعلن في فرح واضح موافقته على كلّ ذلك.

***

في غرفته الهادئة، والتي تحمل عبقًا من الثقافة اللاتينية متمثلة في لوحاتها وألوانها المميزة، انتهى عامر من اغتساله وصلاته، وتحاور مع أبيه ليطمئنه عنه وعن دراسته وعبير، ثمّ حواره الودود مع الأخيرة التي بثّته كلّ شوقها ومحبّتها الصارخة في كلّ ملامح وجهها وحروف كلماتها، وبالطبع لم تنسَ أن تسبّ وتلعن ماريانا التي لا تكفّ عن محاولة التضييق عليها بكلّ السّبل؛ رغم انقطاع لغة الحوار بينهما في غياب عامر.

وكالعادة ذهب عامر مباشرةً للبحث عن تاريخ بوليفيا التي لم يحلم يومًا أن يزورها، فكلّ معرفته عنها أنّها من أفقر وأتعس بلاد المنطقة، وبعد الوصول إلى بعضٍ من تاريخها القريب أدرك السّر في كلّ ذلك؛ فهي صاحبة الرقم القياسي في عدد الانقلابات العسكرية التي شهدتها، فقد عانت من مائتي انقلابٍ تقريبًا!

حتّى أنّها قد وقع فيها انقلابان في يومين متتاليين عام ١٩٧٠، والعجيب أنّها الدولة اللاتينية الوحيدة التي يبلغ فيها نسبة السكان الأصليّون للقارة ممّن يطلق عليهم لقب (الهنود) ما يقارب من ٧٥٪ من إجمالي سكّانها!

اكتملتْ معرفة عامر بما يريده عن هذه البلدة التي تحاول أن تتنسم عبق الحرية بعد استقرارها السياسي القريب.

اتّصل بجيفيد مسائلًا إيّاه عن مكانه، فأخبره أنّهم في إحدى قاعات الفندق الخاصّة بالطابق الأرضي، ولا مانع من أن يلحق به، نسق ثيابه ونظرَ في المرآة بإعجاب لأناقته ووسامته التي يرى أثرَها في أعين الجميلات أينما حل؛ فتزيد ثقته بنفسه، ولكن يراوده كثيرًا أنه لا يستفيد من ذلك كامل الاستفادة!

وصل الى القاعة بعد السّؤال عنها، وعندما أفسح له الحارس الخاص بجيفيد طريق الدّخول، ولج الباب الضّخم ووقف ينظر بذهول إلى المشهد أمامه؛ فقد كان جيفيد وجورمان على جانب من الطاولة الضّخمة، وفي مقابلهما خمسةٌ من الرجال ضخام الجثة بملامحهم اللّاتينية الشهيرة، وبينهما على الطاولة بعض الأسلحة النارية مختلفة الأنواع والأحجام، وعلى طرف الطاولة حقيبة ضخمة سوداء منبعجة الأطراف، ومازال بداخلها بعض الأسلحة الأخرى.

ابتلعَ عامر ريقه بصعوبة وهو يرى عصابة دولية تعدّ العدّة لهجوم ناري ربّما على أحد البنوك في تلك الدولة التي تئنّ من سوء اقتصادها.

وقبل أن يبدرَ منه أيّ ردّ فعل ناداه جيفيد بمنتهى البساطة قائلًا:

- تعال يا عامر هنا بجواري.

ونظر نحو نظرات مقابليه المتسائلة وردّ عليها مستطردًا:

- عامر هذا بمثابة ولدي الذي أفخر به.

وبينما عامر متجمّد في موضعه، قام أحد الضّخام الخمسة مصافحًا جيفيد وهو يقول:

- حسنًا اتّفقنا، وسوف يتمّ تحويل كامل المبلغ لك صباح الغد.

بادله جيفيد التّحية وصافح البقية الذين جمعوا الأسلحة إلى داخل الحقيبة الضخمة؛ ليحملها أحدُهم في يد واحدة بمنتهى البساطة كأنها حقيبته

المدرسية ويلحق بركبهم منصرفين، بينما قام جيفيد وكعادته وضع ذراعه الثقيلة على كتف عامر ليصحبه معه خارج القاعة قائلًا:

– هيّا لتناول كوب القهوة المحبّب لنا سويًّا.

مازال عامر مأخوذًا بما رأى، فقال بصوت مبحوح:

– ما هذا الذي رأيت منذ قليل؟

وبمنتهى التلقائية جاوبه جيفيد قائلًا:

– إحدى الصفقات الناجحة.

– هل هي صفقة سلاح؟!

– نعم.

ارتعدَ عامر وقد اتّسعت عيناه وقال بشحوب:

– هل أعمالك تشمل تجارة السلاح؟!

توقّف جيفيد وسأل متعجّبًا:

– لم أنتَ مرتبكٌ ومشوّش هكذا؟! هذه تجارة وأعمال ناجحة ولا شيء فيها.

– لا، تجارة السّلاح لم تكن أبدًا مشروعة.

– مَن قال هذا؟

ارتبكَ عامر وتردّد، فقد تربّى على أنّ حمل السلاح والتجارة فيه لا يكنْ إلّا في الخفاء وهو فعلٌ إجرامي، فماذا إن كان ذلك شيئًا مشروعًا في هذه البلاد، ولا شيء فيه؟ بدليل أنّ الصفقة تمّ الاتفاق عليها في قاعة أحد الفنادق الكبرى!

قطع تفكيره سؤالُ جيفيد العجيب والذي لم يتوقعه:

– هل تصنيع وتجارة السّيوف في منطقتكم قديما كانت شيئًا قبيحًا؟

– لا، ولكن اعْتدنا على أنّه لا يحمل السلاح إلّا كلّ معتد وآثم.

– وبالطّبع لأن صاحب الحقّ لا يحمله؛ يضيع حقّه على يد ذلك الآثم لفارق القوّة!

لا يا صديقي، هنا الفرد العادي مسموح له بحمل السلاح دفاعًا عن نفسه وأهله وماله، ولهذا يصعب الاعتداء عليه أو سلبه حقوقه.

– ولكن بسبب هذا تزداد نسبة حوادث العنف المتبادل.

– في غيابه يكون وقائع الاعتداء والظلم أضعاف أضعاف حوادث العنف، ألا يوجد عندكم في القوانين ما يسمح بحمل السلاح الشخصي؟!

تردّد عامر فهو لا يدري الإجابة، ولكن أخرج جوّاله بسرعة وهو يشير لجيفيد أن ينتظره، وبالبحث على المحرّك الشهير جوجل فوجئ بأن القوانين بالفعل تصرّح بحمل السلاح الشخصي بهدف الدفاع عن النّفس، ويوجد إجراءات رسمية لذلك.

ولأنّه يدرك بأن الحديث في هذا المجال بين ثقافتين مختلفتين غير مجدٍ؛ فقد سارع بالخروج منه قائلًا:

- إلى أين تودّ صحبتي؟

ابتسم جيفيد وحقّق له ما أراد بترك هذا النقاش وقال:

- صحراء مرآة السماء.

اتّسعت عينا عامر في جزل وقال:

- رائع جدًّا، أعلم بأنّها أكبر مصدر للملح في العالم.

ابتسم جيفيد دون ردّ، وصحبه لارتشاف القهوة التي دعاه إليها، وبعد قليلٍ كان برفقة جيفيد وحرسه الخاصّ يقفان وسط السحاب بلا مبالغة، كانت تظللهما السماء بسحبها الداكنة، وأسفلهما انعكاس لصورة تلك السّحب، وانعكاس صورهما كذلك في مشهد مدهش أخّاذ؛ كأنما يقفان فوق مرآةٍ عملاقة ذات نقاءٍ خيالي، لم يستطع عامر أن يتمالك نفسَه أمام جمال المشهد النادر الذي أصبح مصدرَ دخل سياحي بجوار كونه كنزًا كبيرًا لإنتاج الملح في تلك الصحراء الممتدة والتي تتكوّن من طبقة شفّافة عاكسة لصورة السماء، طلب عامر من جورمان أن يلتقط له صورًا يظهر فيها محلّقًا في السماء مع صورته المنعكسة أمام السيارة وبرفقة جيفيد وبقية الحرس، انتهى عامر من جولته التي أسعدته، فقال له جيفيد بهدوء:

- سوف نذهب الآن لملاقاة وفدٍ رسمي، رجاء استمع فقط وشاهدْ ما يجري، ولا تتفوّه بحرف.

اندهش عامر لمدى جديّة جيفيد في طلبه، ولكن لم يكن بيده سوى الموافقة، انطلقت السيارة الى مبنى عتيق، وبالرغم من مشهده الخارجي والذي يوحي بفقر إمكاناته، إلّا أنّه كان من الداخل مجهزًا بأرقى الأجهزة والأثاثات، جلس جيفيد على طاولة وبجواره عامر، وانتظر جورمان بسيارته، وكالعادة وقف الحارسان القويان أمام باب القاعة، مرّت دقائق ولم يظهر ذلك الوفد الذي ينتظره جيفيد الذي لزم الصمت والتزمَ به عامر، أخذ عامر يتطلّع الى اللافتات والصور الكثيرة التي تغطّي جدران القاعة بشكل كثيف، كان أغلبها يحوى خرائط ورموزًا غريبة، ولكن توقّف عند رمز يكاد يتوه بين الكثير من اللوحات، كان عبارة عن كفّ مضمومة خلفها كفّ أخرى مفرودة الأصابع الخمس وكأنّما تهمّ بأن تقبض فوق القبضة المضمومة، فارتفع حاجباه ولم يستطعْ منع نفسه من أن يهتف قائلًا:

- أليست هذه شارة منظّمة اليد الواحدة السرية؟

وإذا بصواعق وبراكين تنفجر أمام عامر؛ وذلك في أغرب ردّ فعل لم يره أو يتوقّعه يومًا من جيفيد، فقد انتفض الأخير من مقعدة وارتعد بقوّة وصرخ في عامر قائلًا:

- ألم أقلْ لك ألّا تتفوّه بحرف!

وجذبه من يده بقوّة وانطلق خارجًا، وهو يدعو حارسيه لملاحقته وكل آياتِ الرّعب مرسومة على وجهه، كان مسرعًا في خطواته، حتّى أن جورمان عندما رآه ارتفع حاجباه دهشة وقلقًا كذلك، فإذا بجيفيد يهتف به قائلًا:

- انزلْ بسرعة.

بلا تردّد هبط جورمان مسرعًا من السيارة وبعينين متسائلتين نظر نحو جيفيد الذي صرخ به في جزع كبير قائلًا:

– خذْ عامر وانطلق إلى المطار مباشرة ومنه إلى كولومبيا في أول طائرة.

تلقّف جورمان ساعدَ عامر منه وبنفس القوّة ضغط عليه وجذبه لينطلق إلى الشارع المقابل ليوقف سيارة أجرة، وبعينين جزعتين نظر عامر نحو جيفيد فوجده قد تسلّم مقود السيارة وبجواره أحد الحارسين وفي المقعد الخلفي حارس آخر فتح الشّباك، ويتّضح بجلاء أنه يمسك بسلاحه بكلا قبضتيه بقوّة لأسفل، وانطلق جيفيد بالسيارة في سرعة لا يستطيعها شابّ أرعن صغير السن!

رغمَ جهل عامر بما يجري، ارتعد خوفًا وقد أدرك أن هناك مصيبة كبرى تحلّ بهم الآن، وقال بخوف شديد موجّهًا الحديث لجورمان:

– ماذا هناك؟

وكالعادة لم ينلْ منه إلّا الصّمت التام، وبخفوت شديد أجرى جورمان مكالمة طالب فيها شخصًا ما أن يجلب له حقائبه وحقائب عامر من الفندق إلى المطار، ولمدّة ساعة قضاها عامر مرتعبًا من مجهول لا يدريه وهو يتلفّت حوله يمينًا ويسارًا داخل قاعة انتظار الطائرة بالمطار، لم ترتخِ ملامح جورمان وتعود إلى طبيعتها الجامدة إلّا بعد أن حلقت بهما الطائرة.

وبعد أن استقرّ بهما المقام في قصر جيفيد المنيف، لم يشعر عامر بأدنى فرحة لملاقاة عبير وسط مشاعره المضطربة، ولم يتوقف ارتعاده وهو يتساءل عن أيّ

مصيبة قد حدثت جرّاء محاولة إبهار جيفيد بمدى ثقافته كما اعتاد، فعندما كان لديه شكّ في أن جيفيد زعيم عصابة أو منظمة إجرامية كبرى، أجرى بحثًا موسّعًا عن كلّ المنظمات السرية والعلنيّة في أمريكا الجنوبية، واندهش عندما رأى شعار أحدها، ولم يكنْ يدري أنّ مجرد سؤاله عنها سوف يثير كلّ هذه القلاقل!

حاول الاتصال بجيفيد بلا ردّ، حاول سؤال جورمان للمرة العاشرة، وبالطّبع لم يصل إلى مبتغاه، وأخيرًا في صباح اليوم التالي، وبينما لا يشعر بطعم اللّقيمات التي يدسّها في فمه على مائدة الإفطار التي تشمله مع ماريانا وعبير، ولأوّل مرّة يرى هذا الفزع على وجه جورمان الذي اقتحم قاعةَ الطعام بلا أيّ تنبيه مسبق أو مراعاة لأي بروتوكولات متّبعة في هذا المنزل، صرخ فيهم قائلًا:

– جيفيد مات في حادث سيارة!

***

مرّت الأحداث سريعة وقاسية، انتشر الخبر في وسائل الإعلام المقروءة والمرئية، وفاة أحد كبار رجال الأعمال في حادث سيارة في بوليفيا، وصل الجثمان في نهاية اليوم، على حسب الطقوس المتبعة في ثقافة هذه البلاد، تمّ تغسيله وتحنيطه بوسائلهم الخاصّة لما يجعل الجثة تتحمّل البقاء أسبوعًا دون ضرر، ومرتديًا إحدى ستراته الأنيقة رقد داخل تابوت خشبيّ مبالغ في أناقة ودقّة تصنيعه، وجاء الكثيرون لإلقاء نظرة الوداع والدعاء له.

عبير مندهشة وخائفة، عامر يغوص في شعور الذّنب وقد أيقن بأنه هو مَن قتله، ولا يدري حتّى الآن سرّ فزعه المبالغ فيه، أو ما هي الآثار التي ترتّبت على جملته التي نطق بها مخالفة لأمره!

وترى هل حقًّا كانت ميتته بسبب قيادته الرّعناء وخوفه من المجهول، أم تحقّقت تلك المخاوف بالفعل وتمّ قتله جرّاء جملة عامر الغبية؛ والتي هو مستعدّ الآن لبذل نصف عمره مقابل معرفة سرّها، ولكن جورمان قتل أيّ أمل في هذه المعرفة!

لو كانت ميتته عمليّة اغتيال، فهذا الرجل بالفعل كان يعدّ عامر ولده بلا منازع، فقد سعى لتأمينه أولًا بإرساله مع جورمان خارج البلاد، ولكن لمَ لم يتوجّه الجميع سويًّا إلى خارجها طالما هناك خطر يتهددهم؟!

هل أيقن من وقوع الخطر أينما توجّه؛ فقرّر ملاقاة مصيره مقابل تأمين عامر؟

أيّ أفكار خزعبلية هذه التي تجول بخاطره، هزّ رأسه وهو ينفض هذه الأفكار، ربّما منظمة اليد الواحدة هذه منظمة إرهابية، ومجرد نطق عامر لاسمها قد يتسبّب في اتّهامهم بالانتماء إليها وسط أجهزة تنصت بالمكان، لهذا قرّر جيفيد عدم عقد اجتماعه المزعم مع تلك الجهة الرّسمية، وبسبب التوتر الذي انتابه وقعت الواقعة وفقد حياته جراء ذلك!

ماريانا، انتابها صمتٌ عجيب منذ معرفة الخبر، لم تصرخ أو تبْكِ أو تقوم بردّ فعل في أيّ اتجاه، عامر وحده مَن انتبه لذلك مع يقين بأنها في حالة صدمة كبرى.

جعلت الفطرة ارتباطَ الابنة بأبيها مميزًا برابطة خاصّة دائمًا، فما بالك بجيفيد الذي بالغ في تدليلها ورعايتها بما يفوق الخيال!

بل إنّ قصّة عامر كلها بدأت بسبب المبالغة هذه في الدلال لها.

كان ينظر نحوها مشفقًا، يتوجّه إليها سائلًا إن كانت تريد مأكلًا أو مشربًا أو إجابة أيّ طلب، وهي تنظر نحوه بصمت ثمّ تشيح بوجهها بعيدًا عنه، وعبير تحترق اشتعالًا من الغيظ عندما ترى اهتمامه بها، ويدور بمخيّلتها أنّ عامر يتقرّب اليها ليتزوّجها وينال كلّ هذا النعيم معها!

تمّت طقوس الدّفن مع وضع شاهد أنيق فوق قبره، وعاد الجميع إلى مستقرّهم، وهناك سؤال كبير يجول بخاطر عامر؛ ترى ما هو القادم له ولعبير في ظلّ ذهاب الراعي الرسمي لهما؟!

وما هي الإجراءات القانونية المتّبعة الآن؟ حتمًا ماريانا هي الوريث الوحيد الظاهر حتّى الآن، ومع عداوتها لعبير ماذا ستفعل؟

المستقبل يغوص في غيابات المجهول وقد أصبح كلّ شيء على المحك!

وبينما عامر يخبر أباه في محادثة تأخّرت بسبب الانشغال في مراسم الوفاة والدفن، علم منه والده بوفاة جيفيد، فسأله سؤالًا غريبًا لم يتوقّعه؛ فقال له:

- هل حدّثك جيفيد في أيّ أمور دينية؟

بدهشة ردّ عامر قائلًا:

- لا.

وبحسم تامّ قال له أبوه:

- إذًا. فلتصحب زوجتك وتعودا إلينا في أوّل طائرة قادمة.

- لم هذا؟

- سوف أخبرك عندما تأتي.

- ولكن يا أبي...

- انتهى النقاش.

وقع عامر في حيرةٍ كبرى مريبة، أبوه لم يلتقِ جيفيد يومًا، لم سأله هذا السّؤال العجيب وكأنّما كان بينهما اتفاق مسبق؟!

ولِمَ هذا الإصرار الغريب على عودتهما؟ هل هو ظنًّا منه بأنه سيأكل مالَ اليتيمة التي تسبح في أنهار من الأموال والسندات؟!

ولكنْ قبل أن ينطلق في أفكاره المتضاربة واحتمالاته اللامتناهية، جاءته القاصمة، فأخيرًا نطقت ماريانا، كان هابطًا من غرفته بصحبة عبير إلى مائدة العشاء، فوجدا ماريانا على رأس المائدة بموضع أبيها، ابتسم عامر وألقى عليها التّحية، وبعينين تطلقان شررًا، وبيدٍ لوّحت للخارج نطقت بجملة واحدة:

- اخرجَا من هنا ولا تعودا أبدًا.

***

فجأة انهارت كلّ أحلام وآمال عامر دفعة واحدة، وقف ذاهلًا مرتعدًا أمام نظرة ماريانا النّاقمة، وأحرفها الصّارخة بكلّ جدية، ألجمه العجز والارتباك عن الرّد، شعر بدوار خفيف، وقبل أن يحاول جمع شتات نفسه، اعتدلت عبير لتطلق البركان الثّائر داخلها، فهي لم تكن بحاجة إلى ترجمة لتفهمَ ما تريده ماريانا، فقالت بعنف وبصوت عال:

– لسنا شحّاذين أيتها الأميرة، من الجيد أنّها أتت منك أنت، فهذا حلمي الذي لم أستطع البوح به.

كاد عامر يضع يدَه فوق فمها ليمنعها من الكلام، ولكن حاجز اللغة تكفّل بذلك، وإن كانت لغة عبير الجسدية كفيلة كذلك بالترجمة، فصرخ فيها عامر قائلًا:

– عبير، لا يصحّ هذا الكلام، هي جريحة لموت أبيها، يجب أن نتحمّلها.

وضعت يديها بوسطها، ولأوّل مرّة تصرخ فيه قائلة:

– يا لعطفك وحنانك عليها، ها هي أمامك فلتذهب لاحتضانها وتربّت على ظهرها، ولتقبل قدمَها معتذرًا.

صرخ فيها قائلًا:

– عبير للمرّة الثانية أقول لك، لا يصحّ هذا الكلام.

استمرّت عبير في ثورتها قائلة:

– لن أتحمّل الاستمرار في معيشة العبودية هذه، لن أضطر لقبول كلّ ما أرفض لأجل رفاهيات يمكنني العيش بدونها، حياتي البسيطة في مصر أجمل منها ألف مرّة.

همّ عامر أن يردّ عليها، ولكن لمح بطرف عينه ماريانا وهي تبتسم لما ترى، فنظر نحوها بدهشة، ولكنّه داعبه أمل عجيب، لقد ظنّ بأن ماريانا تطردهما لظنّها أو معرفتها بأنّه السبب في مقتل أبيها، ولكن هذه البسمة المتشفّية باحت له بحقيقة الأمر؛ إنّه غيظها وصراعها القديم مع عبير؛ آنَ لها أن تتخلص منهما بما تملك من سيطرة وتحكم كاملين الآن، إذًا مشكلتها ليست مع شخصه، عامر الذي ارتشف التنعم ورفاهية الحياة الجديدة وتشبّع بهما ولم يعدْ لديه استعداد لخسارتهما، على الفور، وبردِّ فعْل سريع اغتنمَ ذلك واستأذن ماريانا أن يصعدا لاستكمال شجارهما بالأعلى بعيدًا عن إزعاجها!

وبمنتهى البساطة ودون ردّ أشارت لهما، فنظر نحو عبير وتعمد أن يرفع صوته طالبًا منها الصعود إلى الأعلى، وكفى فضائح هنا.

***

قلب عامر جميع وسائل الإعلام البوليفية، ولعجبه لم تأتِ على ذكر أي حادث هناك!

ربّما اهتمّت وسائل الإعلام الكولومبية لأنّ جيفيد أحد أبنائها، ولكن المفترض أنّ البلد التي كانت تستضيفه تعلم قدره وقد أجرى بها صفقات كبرى، لمَ لم تهتمّ بخبر وفاته، أو حتّى تنشر مواساة وعزاء لأسرته، وأسفها للحادث الأليم الذي وقع على أرضها وأودى بحياته كما هو متّبع في جميع البروتوكولات السياسية بين الدول؟!

هل من الممكن أنّ الحكومة البوليفية نفسها منغمسة في عملية اغتياله هذه، ولهذا تتجاهل الخبرَ تمامًا؛ حتّى لا تقع في أي شأن يخصه؛ فيتم جرّها إلى محاولة كشف تفاصيل الحادث، وكثرة اللّغط حتمًا تؤدّي إلى الخطأ الذي قد يكشف كلّ شيء؟

ربّما الأمر كذلك بالفعل.

بعد أن هدأ من روْع عبير وأغدق عليها بكلمات الحبّ والحرص عليها، وأنّه لا يسعى لمصلحته الشخصية وإنما لصالحهما معًا، لقد كانت ماريانا أمامه وجيفيد يرجوه أن يرتبط بها، لمَ تركها وسافر خصيصًا إلى مصر ليفوز بها هي؟!

طلب منها الصبر حتّى تتكشف الأمور أكثر، لقد كان جيفيد يرعاه بعناية قد تفوق ماريانا في بعض الأمور، وعندما صحبه مرارًا إلى اجتماع مجلس إدارة المجموعة الاقتصادية؛ كان ذلك تمهيدًا لما سيتملكه في المستقبل القريب حتمًا، لذا من المؤكّد ستظهر وصية بعد قليل فحواها أنّه قد امتلك الكثير من أسهم هذه الشركات حتّى يمكنه رئاسة مجلس إدارتها لما كان يعدّه جيفيد!

لو حدث ذلك، فقد تمّ الاستقلال المادي الذي يحلمان به، ولن يصيرا أسرى لَمن ينفق عليهما بعد ذلك، سيمكنهما أن يعيشا حياتهما كما يريدان ويخطّطان لها فيما بعد، وعندما سألته عن ماريانا وما سيفعله معها، ارتبك وتردّد ولم يستطع البوح لها بأنه يشعر بمسئولية نحوها، لقد نجحت محاولات جيفيد في إثقاله بهذه المسئولية، لقد سافر به الرّجل في رحلة خاصّة وكبرى إلى البرازيل ليشرح له فقط مشروعية وإمكانية زواجه به حتّى وإن كان متزوّجًا بعبير!

لو تحقّق ما يحلم به ويتخيّله الآن، سيكون في رقبته ردّ للجميل الكبير الذي أغدق عليه به، ولن يكون هناك ردّ أفضل من رعايته الحقيقية والكاملة لابنته التي كانت محطّ اهتمام جيفيد في حياته.

سيصبح هذا التزامًا أخلاقيًّا أمام ذكرى الرجل، لا يدري الآن كيف سيوفّي به، ولكن صرف ذهنه عن هذا حتّى تقع الواقعة، وسيكون بعدها لكلّ مقام مقال، تجاهل كلّ ذلك وردَّ على عبير بأنهما سيستقلان عنها، ولكن لو طلبت منه مساعدة يجب عليه ألّا يتأخر وفاء لأبيها الذي كان سببًا في تغيير حياتهما إلى ما لا يمكن لعقلهما أن يحلم به سابقًا.

مرّت الأيام عادية وبسيطة وكئيبة، ليس بها سوى صرخات ماريانا الليلية والتي كانت تصيب الجميع بالفزع، ولا ترد على طرقات بابها الموصد بعناية من الداخل، واعتاد عامر أن ينصرف بعد انتهاء الصرخات والدّخول في مرحلة البكاء الذي تحاول بفشل أن تجعله صامتًا!

وفي الصّباح، رغم عينيها المتورّمتين تسعى لتصنع الصرامة وعدم الخوض فيما يخصّ طقوسها الليلية، عامر طلب من جورمان أن يأتي لها بطبيب نفسي، فحتماً وفاة أبيها تتسبّب لها بمصائب نفسية لا يمكن تركها هكذا، والأخير أخبره بأنّها لن تسمح بذلك، وطالما هي متماسكة بالنّهار فلا ضير من بعض البكاء والصّراخ الليلي لتفريغ كلّ ما هو مكبوت بصدرها.

وأخيرًا، بحرج وتردّد، سأله عامر مباشرة إذا كان هناك محام سيظهر لكشف وصيّة جيفيد؛ كما هو متّبع دائماً في مثل هذه الأحوال.

نظر جورمان نحوه بعمق، وردّ عليه بجملة واحدة:

- غدًا سيكون هنا لكشف الوصية؛ ما دمت ترغبُ في ذلك.

شعر عامر بارتيابٍ شديد من لهجة جورمان التي نطق بها جملته، فقد كان كأنّما يقول له، لقد جلبته لنفسك!

ولكن عامر يثق ثقةً مطلقة بأنّ هذه الوصية حتمًا تحمل مفاجأة كبرى له، لقد ضحّى الرجل بأغلى ما يملك بشريّ لأجل حمايته، لقد ضحى بحياته!

فهل كلّ ذلك سيكون سدًى وهباء منثورًا؟!

حتمًا فعل ذلك لأنّه أعدّ له عدّة كبرى رآه مستحقًّا وأهلًا لها.

حسنًا حسم الأمور مهما كان وقعها وأثرها؛ أفضل ألف مرّة من انتظار المجهول والاختناق بحبل الاحتمالات التي غالبًا تخيب كلها!

ولم يدرِ عامر سرّ قوّة جورمان والذي كان يظنّه سائقًا وفقط؛ فقد وفى بوعْده بالفعل، وفي اليوم التالي جاء المحامي الذي وعد به.

***

بحاجبيْن جميليْن معقوديْن في غضب ظاهر جلست ماريانا على رأس المائدة بموضع أبيها، وعلى يمينها جورمان والمحامي الذي أصرّ على حضورها بعد رفضها رؤية هذه المهزلة!

وعلى اليسار عامر وبجواره عبير التي رغم عدم معرفتها لحرف مما سيُقال أصرّت على الحضور؛ فلا تريد تفويت اللحظة الحاسمة والمحورية في حياتها!

وبسكّين فضّ المغلفات قام المحامي بتمريرها على رقبة عامر الذي شعرَ بها تغوص في لحمه لهفة وخوفًا واضطرابًا!

وأخيرًا أخرج الوصية التي قرأها وكانت لا تحوي سوى سطريْن فقط!

الأوّل يوصي بكلّ أمواله وممتلكاته وسنداته لابنته ماريانا، وأن يكون جورمان وصيًّا عليها حتّى تبلغ سنّ التصرّف فيها!

والثّاني يوصي برئاسة مجلس إدارة مجموعته الاقتصادية إلى شخص لم يسمعْ عامر اسمه من قبل؛ وذلك حتّى موعد الانتخاب الرسمي لرئيس جديد!

غاصَ عامر في كرسيّه وهو يشعر بتيار باردٍ يعصف بكيانه، أين هي المكانة الكبرى التي ظنّها لدى جيفيد والتي كانت بادية بجلاء في كلّ معاملاته؟!

شعرَ بالنقمة على الرجل الذي فتح شهيّته للدنيا ثمّ تركة فيها بلا قطرة ماء!

فجأة تبدّلت محبّة الرجل في قلبه إلى بُغض كبير ونقمة، بل أصبح يقينه الآن أنّ جيفيد عندما طلب من جورمان أن يسرع به في أوّل طائرة؛ ربّما كان هذا الإجراء ليس لحماية عامر، بل لحماية جيفيد نفسه!

فعامر هو الذي نطق بالجملة التي لا يعرف طبيعة الخطر الذي حملته في طيّاتها حتّى الآن، وبالتالي من الطبيعي أن تكون المطاردة خلفه هو وليست خلف جيفيد، لهذا ابتعد الأخير عنه.

هذا هو التّفسير المنطقي، ولكن لا، ليس هذا هو الموقف الذي يُظهر حقيقة محبّة جيفيد له، لقد سبقه الكثير، هناك خطأ ما في هذه الوصية، برقت عيناه عندما التقطَ الخيط الذي يظهر الحقيقة بالفعل، فسأل المحامي في حماس قائلًا:

– ما هو تاريخ هذه الوصية؟

كان ظنّه في محلّه بالفعل، فقد كانت منذ عام كاملٍ؛ أي قبل ظهور عامر في الصّورة ومجيئه إلى كولومبيا، لذا ليست هذهٍ هي الوصية الفعلية، ولكن ترى هل كتب جيفيد وصية بعدها؟

بالطّبع لم يكن متوقّعًا وفاته بهذه السرعة، وربما كان ينتظر حتّى انغماس عامر معه في أعماله انغماسًا فعليًّا ليكتب الجديدة، فكل ما فات إنّما كان مجرّد استعراض ومحاولة تعريف عامر بما سيئول إليه!

تلاشى البغض ولكن بقيت النقمة، لقد تحطمت كلّ آمال عامر الآن وتلاشت، يثق بأن عبير لن تتحمّل مشاكسات ماريانا، وماريانا حاولت طردهما قبلًا، وقد يتكرّر هذا بشكل جدّي جدًّا وفعليّ لاحقًا، لقد علم الآن معنى جملة جورمان عندما طلب منه المجيء بالمحامي لمعرفة ما بالوصية، ها قد جاءه الحسم، فترى أيهما كان أفضل؟

جورمان هذا هو مستودع أسرار جيفيد، وربما لهذا كانت مكانته العليا التي أهّلته ليكون وصيًّا على ماريانا!

نظرَ نحو جورمان وقال له برجاء:

– ألم يترك لي أيّ شيء؟

هزّ جورمان كتفيه ولوى شفته السفلي ولم يردّ.

فتدلّى كتفا عامر بأسى وحزن، دفع عبير لأنْ تنطق قائلة:

- أعتقد أنّه من الواجب الآن إعداد حقائب سفرنا.

نظرتْ ماريانا نحو عامر وقالت متسائلة:

- بماذا تفوّهت؟

قال عامر بمنتهى اليأس:

- تقول إنّه يجب علينا إعداد حقائب سفرنا الآن.

قالت ماريانا بمنتهى الجدّية:

- يمكنها إعداد حقيبتها بالفعل، أمّا أنت لك أن تبقى ولن يتغير أيّ شيء ممّا وعدك أبي به.

اتّسعت عينا عامر وخفق قلبه بقوّة، الأمل يتجدّد مرّة أخرى، ولكن يجب عليه التّضحية بعبير، فهل سيمكنه ذلك؟

بعينين تحملان كلّ تساؤل وغضب الدّنيا سألته عبير عما قالت ماريانا، فردّ عليها بتردد قائلًا:

- تقول بأنّه يمكننا البقاء إن شئنا.

همّت أن تردّ عليه ولكن قاطعها حتّى لا تشتبك الأمور بأكثر مما هي عليه، وطلب منها الصعود لغرفتها؛ لمناقشة أمورهما الخاصّة بعيدًا عن هذا الملأ،

واستأذن من الجميع وصحبها بالفعل ولكن لم يكن يسير بجوارها، بل كان محلّقًا في سماء أخرى ملبّدة بكل الغيوم المشتبكة؛ لتحجب عنه كلّ وسائل الرؤية والتفكير السليم.

وفوْر دخولهما إلى الغرفة، وبعينين متّسعتين وحاجبين مرتفعين وبصوت صارم قالت عبير:

– عامر، الحياة هنا في منتهى الرّفاهية والجمال، ولكن لا تحمل أبدًا راحةً فعليّة ولا طمأنينة، أو أيّ بادرة للسعادة الحقيقية، بل المنغصات التي تواجهنا تفقدنا لذّة ما نحن فيه، هل ترضى بذلك؟

بسرعة ردّ عليها عامر قائلًا:

– لقد كانت طبيعة حياتك تعتمد على تلقّي المعونات يا عبير، ما الذي اختلفَ هنا؟

شهقتْ عبير وتلألأت الدموع في مقلتيها وبصوت شاحب قالت:

– كانت معونات يغلفها الحبّ يا عامر.

وتركته وانطلقت إلى الحمّام الذي أوصدته عليها ووصله صوت نحيبها، شعرَ بتأنيب الضمير يفترسه، فهزّ رأسه بحيرة وألم، هو الآن بين شقي الرّحى، ما الحلّ لما هو فيه؟

ترك التفكير جانبًا وسعى لمصالحة عبير التي ابتسمت لمجرد احتضانه لها وإخبارها أنّها هي حبّ حياته وسرّ سعادته.

جلس في مواجهتها وسألها بجدية قائلًا:

- ما رأيك يا عبير، يوجد حلّ وسط؛ ولكن فيه تضحية من كليْنا.

نظرت نحوه بعينين متّسعتين بتساؤل، فاستطرد قائلًا:

- لو كانت حياتنا بسيطة في مصر، وجاءت لي فرصة عمل بإحدى الدّول الخليجية، وطلبت منك المغيب عامًا أو عامين حتّى تتحسن معيشتي، وبعدها يمكنني استجلابك للعيش معي هناك، كما هو حادث في أغلب البيوت المصرية، هل في ذلك شيء؟

فهمتْ مقصده فقالت بجدية وهي تضغط على أحرفها:

- فارق كبير جدًّا طبعًا، ستكون في دولة تحمل نفس ثقافتك ومبادئك ودينك.

فهمَ مقصدها بشكل تام، فهزّ رأسه بحيرة وقالت بفراغ صبر:

- هذه فرصة لا يمكن تضييعها، ولن تأتي مرّة أخرى ولو في شارد أحلامنا، يجب أن تثقي بي، عام أو عامين لك في مصر، وثقي أن حالي سيتغيّر تمامًا بما يسمح لي بدعوتك للعودة إلى الحياة التي ترغبين فيها.

- الحياة التي أرغب فيها الآن؛ هي الحياة البسيطة الهادئة، حتّى ولو كانت منتقصة للكثير بين أهل حارتي.

- سيتغيّر كلّ هذا بعد ثقل مسئولية الأولاد في المستقبل.

صمتت عبير حينًا، ونظرت نحوه بعمق وقالت:

– يبدو أنّك قد اتّخذت قرارك بالفعل يا عامر، قلها صريحة، هل أصبحت عبئًا عليك وتريد التخلص مني؟

ارتبكَ عامر بقوّة وقال بصوت متردّد:

– لا بالطبع، ما هذا الكلام؟

قرأت عبير في ملامحه الجوابَ السليم، فارتجفت ملامحها في حزن صامت وقالت:

– خذْ وقتك يا عامر، وادرس قرارك جيدًا، ولن أراجعك فيه.

***

حسمتها ماريانا أمام عامر عندما حاول تهدئتها والاستئذان أن تبقى عبير برفقته، ذكَّر ماريانا بأنّ بقاء عبير كان مخطّطَ جيفيد لها، فلتحترم ذكراه وتكمل له ما انتواه، ولكنّها كانت محمّلة بغضب هائل تجاه عبير لا يدري مبعثه الحقيقي؛ سوى شططِ ماريانا التي اعتادت على عدم عصيان رغباتها.

صعدَ إلى غرفته ليجد "عبير" مستغرقة في نومها، نظر نحوها بشفقة، لقد أثقله أبوه بها، فلم تكنْ ضمن مخططاته التي انتواها نحو رحلة كولومبيا، ولكن ظنًّا منه بأنّ ذلك تحصينٌ له، سارع الأب بتزويجه منها، لا ينكر عامر بأنّ لها محبّة حقيقية في قلبه، ولكنها الآن أكبر عقبةٍ في سبيل تحقيق أحلامه وحياته التي يرجوها.

فهل يحقّ لها لآن- بما أنها قد اقتحمت حياته على غير رغبته- أن يتخلّص منها منطلقًا نحو خططه القديمة والكبرى؟

حين مكثِه بمصر لم يكنْ لديه سبل الاختيار، كان مرغمًا على السير في الدّرب الذي رسمه له أبوه، وإلّا سيتوقف كلّ شيء، أما الآن فالأمر بيده، تذكّر مطلب أبيه منه بسرعةِ العودة إلى مصر بعد علمه بوفاة جيفيد، لقد تجاهلَ هذا الطلب تمامًا، ولم يحاول الاتصال به لاحقًا، هذه هي أوّلُ بادرة لاختيار طريقه بنفسه مستقلًّا عن رغبته وتحكم والده فيه.

لَم لا يكمل المسير في هذا الاتجاه؟

سيعوّض عبير بما تريد مقابل العودة إلى مصر وتركه لما هو فيه.

هذا هو التفكير المنطقي.

نظر نحوها مجدّدًا، وجدَ ملامحها الهادئة النائمة بمنتهى الاطمئنان والسّلام، المبعث الوحيد لكلّ هذا الاسترخاء ثقتها في رعايته لها!

شعر بطعنةٍ كبرى من ضميره تخترق أفكاره التي نسقها منذ قليل، ارتسمَ في مخيّلته عيناها الباكيتان بلا توقّف بعد غدره بها، ما الفارق بينه وبين جيفيد حين ذاك؟

الأخير وعدَه بالنّعيم المقيم في الدنيا، ولكن تركه عاريًا فجأة بلا مقدّمات!

كانت تعيش حياتها البسيطة بأحلام أقلّ بساطة، فهو الذي انتزعها معه لتعيش حياةً زوجية من المفترض أنّها مستقرة ومكتملة الأركان.

لو لم يتزوجها لعاشت حياتها بلا مبالغة في الآمال، أمّا أن يبني لها قصرًا فتصبح لتجدَ أنه لم يكن سوى قصرًا من رمال الشاطئ، انهار أسفل أوّل موجة اعترضته!

انتابه صداعٌ قوي لم ينفكّ عنه إلّا بعد اتخاذ قراره النهائي الذي لا رجعة فيه.

***

جلستْ عبير في المقعد الخلفي للسيارة رباعية الدفع التي كانت تستقلّها في انبهار تام حين مجيئها في المطار بأوّل يوم لها بهذه القارة البعيدة.

انعدم الانبهارُ تمامًا، بل لقد تبدّل كلّ ذلك إلى معالم سجن يحوطها من كلّ جانب، ويراودها حلم الخروج منه بأسرع ما تملك.

وجورمان كالعادة خلف مقودِه الخالد، نظرت نحو باب القصر الزجاجي الدّاخلي ليخرج منه عامر بوجهٍ يحمل كلّ حزنٍ وأسى الدّنيا كلّها، نظر نحْوها ليجدَ بسمتها الحنون الجميلة، فدارَ حول السيارة واستقلّ المقعدَ المجاور لجورمان، جلس شاردًا وهو ملتصق بمخيلته مشهد ماريانا الأخير، حاول الاعتذارَ لها، وأن تبقى صداقتهما ولو بشكل إليكتروني، فمسئوليته نحوَ زوجته تجبره على عدم مفارقتها، حتّى لو كان ذلك يعارضُ كلّ رغباته وأحلامه، لو لم يكنْ مثقلًا بها لاختلفت الأمورُ حتمًا، أغدق عليها بكلّ كلمات إعجابه بها، وأنّه كان يسعى لحياةٍ أخرى غير التي سينطلق إليها الآن، ولكن نظرتْ نحوه شذرًا، وبلا ردّ لوّحتْ بيدها وتركته منطلقةً لأوّل مرّة نحو ألعابها الإليكترونية منذ وفاة أبيها!

ألقى عليها تحية الوداع، وانطلق ليجاور عبير في رحلة العودة، سارت السّيارة ببطء على غير عادة جورمان، والذي لأوّل مرّةٍ يخرج عن صمته بمبادرة شخصية منه موجّهًا حديثه لعامر قائلًا:

- كيف أمكنك التّضحية بكلّ ذلك؟! لقد عرضت عليك ماريانا البقاء!

نظر عامر نحو عبير بأسى وقال:

- في رقبتي مسئولية لا يمكنني التخلي عنها.

تطلّع جورمان إليه وهو مبتسمٌ ابتسامةً نادرة جدًّا، وهزّ رأسه برضا تام واستطرد قائلًا:

- لقد كان جيفيد محقًّا بشأنك.

هزّ عامر رأسه بأسى وقال:

- وبماذا يفيد ذلك الآن؟

ببساطة قال جورمان:

- سترى.

نظر عامر نحوه بلهفةٍ وقد تجدّد الأمل في قلبه وقال بسعادة ظاهرة:

- هناك جديد في الأمر، أليس كذلك؟

ابتسم جورمان مجدّدًا ولم ينطق، همّ عامر أن يلحّ عليه في السؤال، ولكنِ انتبه بأنّ السيارة لا تسير في طريقها إلى المطار كما هو مفترض، فانتعش بقوّة، وعاد بظهره إلى منتهاه في مقعده، وعيناه تكادا تدمعان.

توقّفت السيارة أمام فندقٍ فاخر، والتفت جورمان نحو عامر وقال بهدوءٍ وحرص:

– أمامك الآن خياران، استكمال الطريق إلى المطار، أو المبيت ليلتيْن في هذا الفندق، ولكنْ لو اخترت الثاني فاعلمْ بأنّ حياتك كلها لن تعود أبدًا كما كانت، بل ستصير إلى ما لم يخطرْ ببالك ولو في أبعد أحلامك شططًا.

همّ عامر أنْ يجيبه بالخيار الثّاني مباشرة، ولكن تذكر عبير التي التفت نحوها، وقال لها بمنتهى الفرحة:

– ما رأيك يا وجه السّعد، هناك أسرارٌ تركها لنا جيفيد، وجورمان يعرض علينا استكشافها أو استكمال الرحلة إلى المطار؟

رأتْ عبير سعادته، ومحمّلة بجميل تفضيلها على ماريانا، والتخلّي عن أحلامه لأجلها، قالت مبتسمة:

– طالما سيكون هذا بعيدًا عن ماريانا الأمر لك، اخترْ ما تشاء.

وعندما أخبر جورمان بخياره، لم يعلم بأنّه قد فتح بابًا كان جيفيد يشفق عليه من وقوعه فيه حتّى بعد إعداده له!

***

بينما عامر يتقافزُ فوق سريره بمنتهى السّعادة والفرحة وعبير تنظر نحوه مبتسمة سعيدة لبهجته الظاهرة، ارتفع رنينُ جوّاله بعد ساعة واحدة من مغادرة جورمان، كان الاتّصال من رقمٍ مجهول، مستبشرًا بأنّه حتمًا المحامي

الذي سيستدعيه لاستلام أملاك خفية أو إدارة إحدى الشّركات بشكل تامّ ومنفرد بما يشبه الامتلاك لها، وسط كلّ التوقعات القصوى ردّ عامر، ولكن استقبل صوتًا عميقًا هادئًا قال له بمنتهى البطء:

– اسمتعْ جيدًا، ولا تتفوّه بحرف، أخبر زوجتك بمغيبك لمدّة يوم ونصف اليوم، وألّا تخشى شيئًا؛ ستكون تحت رعايتنا بشكل غير مباشر، ستهبط الآن إلى الصّالة الرياضية في الطّابق الأرضي، اترك جميعَ متعلقاتك ولا تصحب أيّ شيء معك ولا حتّى جوالك، فقط مرتديًا زيًّا رياضيًّا خفيفًا، وقمْ بممارسة الجري فوق إحدى المشايات لمدّة عشر دقائق، وبعدها اذهب إلى الحمّام رقم ٥ ستجد به حقيبة بها ملابس جديدة، قمْ بارتدائها واترك ملابسك الرياضية في الحقيبة، وضع الباروكة الشّقراء فوق رأسك لتخفي بها جميع شعرك الأسود، وتلصق الشّارب الأصفر، ثمّ تخرج من الحمّام إلى الباب الجانبي، ستجد سيارة مرسيدس زرقاء تنتظرك قمْ بالجلوس مباشرة بجوار السائق دون حديث معه.

همّ عامر أن يسأله، ولكنْ قطع الرجل الاتصالَ قبل أن ينطق، حاول الاتّصال به، ولكن جاءته رسالة بأنّ الرقم غير سليم!

انتابه شكّ كبير في أنّ هناك مكيدة في الأمر، ولكن مَن قال بأنه سيرعى زوجته حتماً لن يفعل ما يضيره، ترى ما الأفضلُ الآن، أن يضيّع الفرصة ويتجاهل كلّ ما طلبه الرجل طلبًا للأمن والطمأنينة، أم يغامر ليرى ما ينتظره من كنوز حتماً أعدّها له جيفيد؟!

طمعُه وتحقيق آماله كانت الدافعَ الأكبر لأنْ يخبر عبير المتسائلة عن فحوى المكالمة بأنّه تمّ استدعاؤه لمعرفة ما ينتظره من أملاك، وأنّه سيعود ظهر الغد، فلا تقلقْ مطلقًا، وسوف يأتيها كلّ ما ترغب إلى حجرتها، ويمكنها التريّض أينما- ووقتما- شاءت.

وبعد قليل كانت تنطلق به المرسيدس الزرقاء يلفّها الصمت التام، خرجت مسرعةً من المدينة، وانطلقت مسافة لا بأس بها بين الأشجار الكثيفة في الطريق الرئيسي المحاذي لنهر بوجوتا، ثمّ انحرفت إلى طريقٍ فرعي ضيّق غير ممهّد، وبعد الانطلاق فيه بسرعة مُخلفة وراءها الكثيرَ من سحب الأتربة لمدّة ثلاثة أرباع الساعة، توقفت أمام منزل خشبيّ بسيط يوحي مشهده المتواضع بأن ساكنه ربما يكون أحدَ المزارعين بالمنطقة، بصمتٍ تامّ أشار له السائق ليهبط ففعل بتردّد، وما إن توقّف على بُعد خطوة منها حتّى انطلقت السيارة المتناقضة في مشهدها مع المنزل المتوقفه أمامه، انطلقت مسرعة لتختفي تاركة وراءها بقايا الأتربة المتطايرة، وعامر يقف في حيرة ولا يدري ما يجب عليه فعله، ظلّ بموضعه لخمس دقائق منتظرًا أن يخرج من المنزل من يدعوه للدخول، ولم يحدث!

فما كان منه إلّا التوجه إليه لطرق الباب، وما إن فعل حتّى فُتح الباب مباشرةً ليظهر خلفه ذلك المسنّ الوقور ذو الشّارب الكث والشعر الكثيف الأشهب مرتديًا بذلته الأنيقة الكلاسيكية ذات الصديري أسفلها مع حاملات تجذب بنطالَه لأعلى، مشهدُه يوحي بأنه أستاذ جامعي أمريكي

تمّ انتزاعه من عهد الستينيّات، وقبل أن يخوض عامر في خيالاته، وبصوت هادئ جدًّا وببسمةٍ لطيفة ودودة قال له:

- أهلًا يا عامر، تفضّل.

رغمَ دهشة عامر لمنتهى الحميمية التي نطق بها الرجل جملته البسيطة؛ والتي توحي بأنّ بينهما معرفة قديمة وثيقة الصّلة، رغم ذلك لم يتوقف وإنّما دخل مستطلعًا المنزل البسيط جدًّا من الداخل بأثاثه وتكوينه رغم توقّعه للنقيض، فرحلةُ الحصول على بعض أملاك الملياردير جيفيد حتماً لن تنتهي وسط ذلك المشهد المتواضع!

جلسَ عامر إلى المقعد الذي دعاه الرجل إليه، وقبل أن ينطق قال له:

- سيأتيك الآن مشروبٌ بارد مُنعش، ارتشفه ببطء واستمتاع، لأن ما سيليه قدْ يفقدك مذاق كلّ ما تعرفه في هذه الدنيا.

ارتفع حاجبا عامر وقال مبتسماً:

- اعتدتُ عند سماع المبالغة بهذا الشكل أن يعقبه التّوافه دومًا.

ضحك الرجل بوقار وقال:

- لا عليك، سترى بعد قليل.

جاءه خادم بوجهٍ لاتيني عتيق، ووضع أمامه مشروبًا أخضر اللون لا يدري كنْهَه، ولكنْ أعجبه مذاقه وبرودته المحبّبة، وما إن انتهى منه وسط نظراتِ الرجل العميقة له، حتّى قال مبتسماً:

- ها قد انتهيت، أين مفاجآتك المزلزلة؟!

ضحك الرجلُ مجدّدًا، وقام منطلقًا أمامه وهو يقول:

– فلتصحبني يا بطل.

توقّع عامر أن يجد مصعدًا إليكترونيا يهبط به خمسين طابقًا لأسفل، ولكنْ دخل به الرجل إلى غرفة جانبية ليجدها مكتبة ضخمة تحوي مجلداتٍ لا حصر لها قد تكون عدّة آلاف، كانت الغرفة كأنها عدّة غرفٍ كبرى تمّ دمجها لتحوي الكثير من الأرفف والقوائم الخشبية وبعضَ حوامل الكتب بالمنتصف، وفي النهاية مكتب خشبي مصمّم بعناية ومنتهى الأناقة من خشب الزّان، جلس الرجل خلفه ودعا عامر لأنْ يجلس بمواجهته، وعندما استقرّ الأخير على كرسيه تنهّد الرجل بعمق وقال:

– أعلمُ بأنك جئت طمعًا في كنز مالي، ولكن لو علمت ما بين دفتي هذه الكتب، ستدرك أيّ كنز خيالي قد وقعت عليه.

شعر عامر بالإحباط وتذكّر كلمات أبيه المثالية، وفكرة عبير عن قيمة الحياة الطيبة الخالية من المنغّصات؛ وأنها أهمّ من أيّ راحة مادية تحمل متاعبَ نفسية لا حصر لها!

كلّ المقدّمات توحي بنقيض ما يأمل، ولكن التزم الصمتَ ليرى ما بجعبة هذا الرجل، من المستحيل أن تكون وصية جيفيد له بملكية هذه المكتبة!!

نظر الرجل نحوه بعمق وقال:

– تظنّ أن قصّتك معنا قدْ بدأت منذ يونيو الماضي، ولكنها بدأت قبل ذلك بكثير جدًّا، فقد كان ذلك منذ أكثر من خمسة قرون.

- ماذا؟!!

- استمع جيدًا، وامنحنى كامل تركيزك، فحياتُك على مفترق طرق كبير بعد ما تسمعه منّي الآن، فقصّتك معنا بدأت في نوفمبر عام ١٤٩١.

- وكيف هذا؟!!!

عاد الرجل بظهره للخلف، وتنهّد بعمق وأغمض عينيه وقال:

- إليك الخبرُ بكافة تفاصيله.

***

قصرُ الحمراء الزاهي بأرقى فنون العمارة والزخارف الإسلامية، أهمّ معالم غرناطة الأندلسية قديما وأسبانيا حاليًا، لم يكن المشهد اعتياديًّا هذه المرّة، فلم تكن الجواري يركضنَ فيه بضحكات الدلال التي اعتدنَ عليها، ولم يكنِ الوزراء يختالون في مشيتهم البطيئة وملابسهم البرّاقة بالتصميم اللامع بأكثر من لون، ولم يكن السّلطان العربي محتلًّا عرشه المعتاد؛ بل على النّقيض كان جالسًا ذليلًا على كرسي عادي قديم يقابل فرناندو المتكئ على عرش القصر بمنتهى الخيلاء وسط رجاله الواقفين باعتدادٍ كبير، وأيديهم على أسلحتهم التي لم يتجرّدوا منها مراعاةً للقاء من المفترض أنّه ديبلوماسي للتفاوض الأخير على تسليم غرناطة بشكل كامل.

نطقَ السّلطان أبو عبد الله قائلًا:

- وأن تنصّ اتفاقية التسليم على "تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم،

وإقامة شريعتهم على ما كانت عليه، ولا يحكم على أحد منهم إلّا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت، وألّا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يغصبوا أحدًا، وألّا يولّى على المسلمين نصراني أو يهودي ممّن يتولى عليهم من قِبَل سلطانهم، وأن يطلق سراح جميع أسرى المسلمين فى غرناطة، وألّا يؤخذ أحدٌ بذنب غيره، وألّا يقهر مسلمٌ على التنصّر، وإن تنصر مِن المسلمين يوقف أيّامًا حتّى يقرّر بنفسه، ويعلن ذلك أمام حكم من المسلمين وآخر من النصارى، ولا يعاقب من قتلَ نصرانيًّا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلبَ من النصارى أيام العداء، وألّا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، وألّا تفرض على المسلمين ضرائب جديدة، وأنْ ترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، وأن يسير المسلم فى بلاد النصارى آمنًا فى نفسه وماله، ولا يمنع مؤذّنٌ ولا مصلّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه".

قاطعه فرناندو بتملّل وهو يشيح بيده أن يتوقف قائلًا:

- كم عدد هذه البنود التي ترغب فيها؟

ابتلع السّلطان ريقه بصعوبه وهو يشعر بالمهانة قائلًا:

- سبعة وستون بندًا.

بمنتهى البساطة والاستخفاف لوّح بيده قائلًا:

- حسنًا، أوافق عليها كلها، وليكن يومُنا هذا الخامس والعشرين من نوفمبر هو تاريخَ التّوقيع الرسمي عليها.

حاول السلطانُ استجلاب شيء من الرضا الذاتي، فنظر نحو أحد مساعديه سائلًا:

- أليس هذا هو أفضل الحلول بعد حصارٍ قارب العامين؛ ولم يعد لنا إلّا الموت أو إيّاه؟

هزّ الكثير من المساعدين رؤوسهم مؤيّدين بأن هذا هو أفضل المخارج للوضع النهائي لأرض الأندلس كلها.

رجلٌ واحد لم يرقّ له الأمر كله، بعيني صقر، وفراسة مقاتل، وجسارة أسد، أخذ يجول بعينيه في أرجاء القصر بحثًا عن الجملة الخالدة الشّهيرة والمميزة لقصر الحمراء وغيرها من القصور الكبيرة، جملة (ولا غالب إلّا الله) ليجدها كلّها قد توارت خلف الصلبان التي تم تعليقها في كلّ ركن لتكنْ هي أهمّ العلامات البارزة بالقصر، أدرك مباشرة بأن الحرب إنّما هي حرب هويّة دينية؛ وليست أبدًا نزاعًا على إدارة أملاك هذه البلاد، لذا لم يتمالك نفسه عندما رأى الدموع تسيل من عيني السّلطان ومرافقيه؛ حزنًا على ضياع الملك الكبير في هذه البلاد التي فتحها، وعمّرها أجداده مئات الأعوام، فهتف قائلًا بمنتهى الصرامة والقوة:

- اتركوا العويلَ للنّساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدّمع، ولكن لتقطر الدماء، فلنمتْ دفاعًا عن حرياتنا وانتقامًا لمصائب غرناطة، وحاشا لله أنْ يقال أنّ أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها.

وبينما يردّ عليه السلطان أبو عبد الله مكبرًا وراثيًا حاله، وأنّ التاريخ لن يذكرَ له إلّا ضياع الأندلس على يديه، مال فرناندو على مساعده وهو ينظرُ إلى ذلك الفارس العملاق بغيظ وسأله:

– مَن هذا الرجل؟

– إنّه موسى بن أبي الغسان.

– مُرْ عشرين فارسًا أن يلاحقوه؛ فلا يرى ظلامَ هذه الليلة إلّا في قبره.

قام المساعد مسرعًا نحو أحد الفرسان في ركنٍ قصيّ من القصر وأسرّ إليه بالأمر، فتحرك الرجل مباشرة دون أن يردّ عليه.

***

انصرفَ الوفد الأخير من قصر الحمراء منصرفًا عنهم الفارس القوي الشّجاع موسى بن أبي الغسان، وهو يلكز جانبي فرسِه بقوّة، ويزفر تغيظًا وغضبًا يكاد يلهبُ الفرس القوي أسفله.

وعلى الطريق الملاصق لنهر شنيل كانت الرؤية أمامه مشوشة من أثر الغضب، أراد أن ينفردَ بنفسه حتّى لا يقع مخلوق تحت طائلة حمم هذا الغضب الهائل بداخله، وبينما تعلو خلفه سحابة ترابية وذكرياته القريبة والبعيدة كأحد أشراف مدينة غرناطة السابقين تلاحقه وتلهبه بشكلٍ متصاعد أليم، وقفت سريّةٌ قشتالية متوارية على الجانبين من الطريق مستترة بكثيرٍ من جذوع الأشجار الضخمة وهم ممسكون بمقابض أسلحتهم بمنتهى القوّة والترقب،

ويصرعهم خوفٌ كبير رغم غلبتهم العددية، وتميّزهم بالمفاجأة الكفيلة لهم بالتغلب والنصر السّريع، ولكن ما وصلهم عن مدى جسارة وقوة وبراعة هذا الفارس، وبما يعلمون عمّا يعتمل به الآن من يأس غاضب حتمًا سيضاعف من شراسته؛ حُقّ لهم هذا التخوف الكبير!

اقتربَ الفرس بسرعته القصوى، وقبيل الوصول تمّ شدّ حبل قوي بعرض الطّريق أمامه ممسكًا بطرفيه ثلاثة من الفرسان على كلّ جانب، وقد التفّ الحبل على سواعدهم ووسطهم، كانت مفاجأة هذا المصدّ القوي أمام الفارس وفرسه أقرب مِن أن يتعامل معها بالقفز أو المناورة، فجذب الفرس الحبل بالمُمسكين به خلفه مسافة عشرين مترًا، ولكن مع عثرة كبرى أسقطته على قائمتيه الأماميّتين، وقبل أن يسقط برقبته على الأرض كان موسى قد قفزَ قفزة كبرى أذهلت النّاظرين إليه ليهبط واقفًا على قدميه، خرج إليه الأربعة عشر فارسًا قتشاليًّا المتبقين على متن فوارسهم السّوداء القوية وهُم يصيحون بقوة مستلّين أسلحتهم الضخمة ومتّجهين بأنصالها تجاه الفارس موسى.

اشتعلت المعركةُ غير المتكافئة لمدّة ربع الساعة في مشهد يعجز أي قاصٍ أن يصفها، صرع فيها موسى الكثيرَ من الفرسان، واشتعلت جراحُه الكبرى والخطرة بأكثر من موضع بجسده، وعندما ناله الوهنُ على أثر تمزّق بعض العضلات الرئيسية التي تمكنه من الوقوف والمبارزة والطّعن، تراءى له الموت أو الأسر، وبلمحة سريعة قرّر ألّا يجعلهم من الفائزين بنظرةِ استسلام أو هزيمة في عينيه، وبسرعة اتّجه بسلاحِه إلى صدر الفارس المقارب لضفّة النهر، وأعمله في صدره حتّى مقبضِه وتركه ساقطًا على الأرض بسيفه،

مسرعًا ليلقي بنفسه إلى جوف النّهر، ارتبكتْ صفحة النّهر الهادئة بكثير من الاضطراب، وتلوّن بعضها باللّون الأحمر من أثر دمائه الكثيرة، أسرع الفرسان ليصطفّوا على ضفة النّهر وهُم ما زالوا قيد الاستعداد والتربّص، وفي مخيلتهم أنه سيخرج لهم من وسط الماء كشيطانٍ تجدّدت خلاياه؛ ليعود بقوّة أكبر مما كان عليها، ولكن بدأتْ صفحة المياه تستردّ طبيعتها ولم يعدْ من أثر اضطرابِها سوى اللون الأحمر الذي بدأ في التحرّك باتجاه التيار الهادئ ليخفّف من أثره، مرّ أكثر من عشر دقائق ولم يظهر الفارس الأندلسي القويّ موسى بن أبي الغسان، تأكدت السريّة من مقتله والفوز عليه، فتصايحوا فرحةً وسعادة بذلك، وأخيرًا اصطحبوا قتلاهم وجرحاهم وقفلوا عائدين، ليسدلَ الستار على حقبة تاريخية عجيبة بهذا المشهد الأكثر غرابة!

***

– موسى بن أبي الغسان، لم أسمعْ عنه من قبل، رغم حضوري لدروس وقراءة الكثير من الكتب عن الحقبة الأندلسية!

نطقَ بها عامر متعجّبًا بعد توقّف الرجل عن القصّ متنهّدًا، فابتسم بهدوء وقال:

– العجيب بالفعل أنّ المصادر الأوروبية تذخر بسيرة هذا الرجل، بينما هناك قصورٌ كبير جدًّا في سرد التاريخ العربي عنه! تقريبًا لم يتحدّث عنه سوى الروائية رضوى عاشور في ثلاثية غرناطة، وذكرت بأنّ نهايته كانت عند ضفّة هذا النهر، بينما هناك روائي آخر يسمّى "محمد عبد القهار" كتب

رواية تسمّى (غارب) سردَ فيها جزءًا من تاريخ النهاية للأندلس، بسردٍ ذاتي جعله من وجهة نظر الفارس موسى بن أبي الغسان.

قاطعه عامر قائلًا:

- وهل نستمدّ التاريخ من الروايات؟!

ابتسمَ الرجل، وعاد بظهره للخلف وقال:

- الرّوايات بجوار جانبها المُمتع نفسيًّا وفكريًّا وذهنيًّا، تعدّ تأريخًا قويًّا لكلّ حقبة تدور فيها أحداثها، منها تستلهم روح كلّ حقبة من جميع الجوانب، بغضّ النظر عن منطقية أو صحّة أحداثها، ويكفي أنّها قد تستثير شهيّتك للبحث عن الحقيقة بين المصادر الأصلية والسّليمة لتاريخ كلّ حقبة تتحدث عنها.

- العجيب أنّك بدأت بذكر الروايات قبل الكتب عن هذا الرجل!

- حسنًا، هناك كتاب عربي واحدٌ بالفعل تحدث عنه، ولكن كنت على وشك أن أصلَ بك لأغرب وأعجب من تحدّث عن هذا الرجل.

اتّسعت عينا عامر تساؤلًا، وقال:

- أنتظرك.

- رواية (عودة الموريسكيّ من تنهّداته) لروائي فلسطيني يسمّى "عدوان نمر عدوان" في هذه الرواية العجيبة يتجسد الفارس موسى في أبطالٍ آخرين، في كلّ مرحلةٍ قاتمةٍ سوداءَ تجده أو تجد شبيهه، فهو لا يموت،

كانت الرواية متنقلة في أزمنة مختلفة بين بطلين (موسى الأندلسي القديم بأحداث في غرناطة، وموسى النابلسي الحديث بأحداث تتأرجح بين أسبانيا ومدينة القدس)

تململَ عامر وقال:

– حسنًا، لقد تشوّقت لقراءة رواية هذا الأخير، ولكن كلّ هذا الحديث كان من السّهل إجراؤه عبرَ الجوال؛ لتقص عليّ مدى خبرتك ودرايتك بالتاريخ العربي القديم والجديد، وتذكرني ببطلٍ عربي مجهول!

الآن وهو الأهمّ؛ ما علاقة كلّ ذلك بي وبالأجواء العجيبة التي نحن فيها الآن؟!

قهقَه الرجلُ لأوّل مرّة، وربّت على كتف عامر بحنان وقال:

– حسنًا، لقد قلت لي بأنّك كنت من المهتمين بالتاريخ الأندلسي، ما هي خلاصةُ معرفتك عن فترة النهاية لتلك الحقبة؟

تنهّد عامر بفراغ صبر وقال:

– كلّ بنود اتفاقية تسليم غرناطة تمّ نقضها، بل لقد تمّ التركيز على مضاعفة كلّ ما هو نقيض لها، وتمّ إجبار الجميع؛ مسلمين ويهود، على التحوّل إلى المسيحيّة، ومَن تمنّع تمّ طرده أو قتله، أو فرَّ هو بنفسه وأهله ودينه.

– بالضّبط، ولكن كانت هناك أغلبية أعلنتِ التحوّل، وتمسكت بدينها الحقيقي في سرية مطلقة.

– أعلم هذا، وعندما ظهر أثر ذلك، تمّ إنشاء محاكم التفتيش التي تبحثُ عن حقيقة التحوّل الديني هل هو تامّ أم ظاهري، ووصل الأمر لمعاقبة مَن يتمّ التشكك في صحة تحوّله، ولو بدليلٍ غير ثابت، وكان العقاب وحشيًّا، لدرجة دفعت كلّ أبالسة الجحيم لأنْ تتعانق؛ وهي تشعر بالحبور أنها لم تصل يومًا إلى هذه الدرجة من الشطط!

– هل تعلم بأنّ تسليم مدينة غرناطة لم يكن نهاية الصراع والحروب حينها؟

– نعم سمعت عن ثورة البشرات وغيرها، ولكن منيت جميعها بالفشل.

– رائع، أنت بالفعل متابعٌ جيّد لكلّ ما ورد بالمصادر التاريخية الشّهيرة.

– حسنًا، مازلت لا أدري ما علاقة كلّ ذلك بي؟!

– اصطبرْ يا فتى، والآن استمعْ لي بقلبك لا عقلك.

***

بينما كانت المحارق وأدواتُ التعذيب الشيطانية تعمل على قدمٍ وساق لمْحو أي لمحة لبقية من إسلام في صدور أتباعه السابقين، وفي غرفةٍ فقيرة التأثيث والهيكل؛ اجتمع عشرة من الرّجال يلفهم ظلام الليل من الخارج، مع تعمد عدم إشعال أيّ من وسائل الإنارة كذلك في الداخل، قال أحدهم همسًا:

– المقاومة في بلنسية والبشرات نجحت في تكوين قوة ضاربة يمكنها التحرك العلني المنظم الآن.

– ولكنّ الأمور هنا تصير كلّ يوم من سيئ إلى أشد سوءًا، ولم يعدْ ممكنًا الخروج والانضمام الى الثورات القادمة في تلك المدن بعد ضرب الحصار حولها ومنع الذهاب إليها.

– وبعد توظيف كلّ الموريسكيّين في أعمال الزراعة والخدمة لدى السّادة بما يشبه الاستعباد؛ لم يعدْ مسموحًا لهم بالمغادرة أو الهجرة بدينهم إلى السواحل المغربية كما كان الحال سابقًا.

ورغم الظّلام الشديد إلّا أنه تأكد من إحكام غطاء الرأس والوجه الذي يلفّه، قال لهم قائدهم وبصوت عميق:

– طبيعة الصّراع تستدعي معرفة ثغرات عدوك والنفاذ منها بذكاء، فليست شجاعة أن تلقي بنفسك إلى التهلكة.

– ماذا تقترح؟

ردّ بصوته القوي رغم اتّشاحه بوهنٍ خفيف حزين:

– الأرض الجديدة خلف بحر الظلمات؛ والتي يعدون العدّة للذّهاب اليها، هي الزاوية التي لن يروننا فيها، فلتكن هجرة كهجرةِ يثرب، يشتدّ فيها عودنا ونقيم القوة التي يمكن بها استعادة أنفسنا أوّلًا، ثمّ أرضنا تاليًا.

– نريدك قائدًا لنا هناك.

– لن أترك هذه الأرض التي ارتوت بدمائي.

– هاجرَ الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، ليقود الأمّة الى ابتعاث جديد، ولا تحزن إنْ قلنا لك بأنّ جراحك المثخن بها لا تؤهّلك لأيّ دور قتالي هنا.

– سأظلّ هنا لرسم خطط الخروج وحثّ الناس عليها.

– فليكنْ، سنكون بانتظارك هناك.

سادَ صمتٌ مُطبق بعد الجملة الأخيرة، فتنهد القائد وقال:

– لو انتبهوا لمحاولات الهروب هذه؛ حتماً ستصدر بعض المراسيم الملكية التي تعرقل عملية الهجرة، ولكن الموكلون بتنفيذ هذه المراسيم هُم أنفسهم الخنازير الجشعة التي لا يهمّها إلّا أنفسها وفقط، فليكنِ التعامل مع انحراف هذه النفوس، سيقبلون المساومات والتعامل غير المعلن مقابل تمرير مَن يريد الهرب؛ طالما ستكون جريمة مكتملة لا يمكن اكتشافها لدى قادتهم هنا.

– سنقوم بالتحرّي اللازم نحو كلّ المنافذ، والمسئولين عنها وكيفية الوصول إليها.

– حسنًا، ولكن لتستمرّ الهجمات؛ لتنالَ منهم على نفس وتيرتها القديمة لتشغلهم عن هذه الزاوية، والتي ستكون مصبّ اهتمامنا الرئيسي في المرحلة القادمة.

***

بعد أن ظنّ التاج الأسباني تمامَ السيطرة واستعادة ما يسمونه بجزيرة أيبيريا مكوّنة من أسبانيا والبرتغال حاليًا، والتي ظلّت مئات الأعوام مسمّاة بالأندلس، بدأ التجهيز لاختراق بحر الظّلمات، وهو ما أطلق عليه فيما بعد اسم "المحيط الأطلسي، أو الأطلنطي"، فتمّ إعداد ثلاث سفن حربية ضخمة، لتذهب الى الأراضي اللاتينية لتنقل إليها وحشية وافتراس الرجل الأوروبي؛ الذي امتهن واعتاد على سفك الدماء بمنتهى اليُسر واللامبالاة .

وهجمت تلك الضباع الوضيعة على أناس كانت حياتهم بسيطة نمطيّة تلقائية، فأعملوا فيهم أنيابهم وقادوا حرب إبادة ضدّهم، فكما كان العمل على قدمٍ وساق لمحْو أدنى أثر للإسلام والمسلمين في شبه جزيرة أيبيريا، كان الوحشُ الأوروبي يرى أن وجوده في الأرض الجديدة مرتبطٌ بمحْو ثقافة وعقيدة الرجل الهندي صاحب الأرض العتيق، وامتدّ ذلك لمحْو الرجل الهندي نفسه!

ولكنّ سفنهم لم تحمل الفرسان المقاتلين والأمراء والقادة المتزعمين لهذه الحملة وفقط، فقد كانت تحوي الصناع المهرة والبحارة المتمرسين والبارعين؛ القادرين على اختراق بحر الظلمات، وكان أغلبهم من الموريسكيين، هؤلاء الذين تمّ تحويلهم من الإسلام إلى المسيحية بأوامر ملكية لا نزاع فيها!

وقد فرّ هؤلاء من جحيم محاكم التفتيش في بقايا أرض الأندلس.

وهناك أذهلهم قدرةُ قادتهم الأسبان والبرتغاليين على إسالة هذه الأنهار من الدماء، رغم معاناتهم من هذا الجبروت قبل فرارهم المقنّع هنا، كان ظنّهم بأن هذه الأرض الجديدة ستكون مأوى طيبًا هادئًا لهم، فإذا بهم يرون جيوش الاحتلال تحرق الأخضر واليابس في مذابح خيالية هوّنت عليهم كلّ ما لاقوا من قبل، بل كان من حُسن حظّهم أنهم لم يكونوا ضمن فئة المقاتلين المنغمسين في كلّ هذه الجرائم؛ وإلّا افتضح أمرهم من أوّل يوم، لذا أعمالهم في الخدمة والزراعة وبقية الشئون الوضيعة جنّبتهم كلّ ذلك.

ولكنْ مع كثرتهم وتزايد أعدادهم المستمرّ انتبه قادة الاحتلال الأسباني لذلك، فتمّ استصدار المراسيم التي تمنع استقدام أيّ موريسكي؛ كما توقّع قائدهم في اجتماعه مع رجاله المقربين بالفعل، وبدأت الأعداد الفارّة في التناقص، ومَن يأتي منهم إنما يتمّ ذلك بمغامرات وخدع بدأت في التكشف واتّخاذ خطوات تقلّلها أو تمنعها.

وأخيرًا في استقبال مَهيب وخاص، وطأت القدمُ الكريمة لذلك الفارس العظيم الأراضي الأمريكية ليتنسّم عبيرها النقي؛ والذي يشابه كثيرًا عبق الأندلس أيام عزّتها السامقة.

سالتْ من عينه الجريحة دمعةٌ حارقة كادت تكوي خدّه، أن دفعته الأيام للهجرة إلى هذه البلاد البعيدة، ليقوم وينظم ويحفظ ما تبقّى لدى عشيرته من دين.

***

– هل هذا القائد هو أبو موسى الغساني؟!

نطقَ بها عامر ذاهلًا، فابتسم الرجل بهدوء وقال:

– تاريخُ هذه الفترة للموريسكيين في أمريكا اللاتينية مجهول جدًّا قلّ مَن تناوله، وأثق بأنك رغم اطّلاعك لم تدرِ عنه شيئًا.

– بالفعل، هذه مفاجأة حقيقية لي، يبدو بالفعل أنّ الأندلسيين لم يتخلّو عن دينهم ولا أرضهم حتّى الرمق الأخير؛ وقد فعلوا أقصى ما لديهم للحفاظ على دينهم.

– هذا حقيقيّ جدًّا.

– حسنًا، وما الذي فعله هذا القائد معهم في الأرض الجديدة هذه؟

تنهّد الرجل بعمق كبير وقال:

– كان قائدًا عبقريًّا بمعني الكلمة، فكما يقال في العلوم السياسية؛ السياسة هي فنّ الممكن، وهو لم تعتريه عنترية كاذبة، ولم يسعَ لبناء أبراج من الوهم، درس الواقع بمنتهى التأنّي، وطلب من أتباعه الانغماس في الأرض الجديدة كلها على مستوى القاعدة، بمعنى الانشغال في كلّ المهن الأساسية التي لا غنى عنها، والتزاوج مع أهل الأرض الأصليين، وتكوين قوّة اقتصادية خفية تجعل القضاء عليهم صعبًا، ويهدد بالانهيار، وقد كان...

– رائع، هذا تخطيط عمليّ يعطي نتائج مبهرة على المدى الطويل.

– واشتدّ عود الموريسكيّين في الأرض الجديدة، حتّى ظهر بجلاءٍ للجميع أنّهم مازالوا على دينهم الحقيقي؛ وهو الإسلام، وأنّ لهم مخططات تحفظ لهم هذا الدين في صدورهم.

– وماذا فعل الأسبان والبرتغاليّون حينما تكشف لهم ذلك؟

هزّ الرجل رأسه بأسى وقال بحزن:

– قامت لهم محاكم تفتيش جديدة، وكانت إبادة ثانية لهم.

– وهل تمّ ذلك بسهولة؟

– كان بصعوبة بالغة، ولكن للأسف على المدى الطويل نجح.

هزّ عامر رأسه بمرارة وألم، وقال بغيظ:

– رائع أيها العبقري، لقد أذهلتني بتاريخ جديد لم أدرِ به من قبل، ودفعتَ بمرارة كبرى إلى حلقي، والآن أكرّر سؤالي؛ ما علاقة كلِّ ذلك بي؟!

ابتسمَ الرجل بأسى وقال:

– قصصتُ عليك ما جاء في المصادر التاريخية، الآن سأقصّ عليك ما لم يردْ في أيّ مصادر موثّقة.

تنهّد عامر وقال:

– لا ضيرَ من ذلك، تفضّل؛ كلّي آذان صاغية.

***

فرانسيسكا سواريس من الموريسكيّات الشهيرات في أمريكا اللاتينية، كانت معروفة بلقب (البلنسية)، ومن الشخصيات المعروفة في ليما ما بين أعوام ١٥٣٠ و١٥٥٠. استطاعت إنشاءَ فندق ومخبزة، كما حازتْ خمس منازل إلى جانب منزلها الخاص، وتزوّجت أربع مرّات. واحدة من الزيجات كانت بأنطونيو دي طوليدو الذي ساعدها في إدارة شئون الفندق، ولكنْ سرعان ما تمّ إلغاء الزيجة من طرف السلطات الأسبانية، وذلك بسبب حدوث حالةٍ لطالما تكرّرت في المجتمع الاستعماري: لقد كان زوجها متزوّجًا بأخرى؛ استسلم المستوطنون الجدد لإغراء الارتباط بأخرى،

ونسيان الزوجة الأولى في أسبانيا، خاصّة إذا ما كانت زوجة فقيرة بعيدة أمام أخرى غنية قريبة.

كان زوجها طوليدو متزوّجًا في أسبانيا فرفعت الزوجة هناك دعوى قضائيّة ضدّه، وعلمتْ محاكم التفتيش بالأمر سنة ١٥٥٤ فقامت بترحيله بعد أن أبطلت زواجَه بالموريسكية البلنسية، وبما لها من قوة وحضور وحيلةٍ استطاعت فرانسيسكا أن تحجب أنظارَ محاكم التفتيش عنها، ولهذا جاء ذلك الاجتماعُ العجيب في منزلها؛ ضمّ القائد والفارس العربي العظيم، وشخصية مسيحيّة نقية، وكذلك أخرى يهودية معتدلة!

تحدّث القائدُ المسلم قائلًا:

- ديننا عنوانُه الرّحمة، وحتى في حروبنا كانت التعليمات واضحة جليّة؛ ألّا نقتل شيخًا أو طفلًا ولا امرأة، بل طال الأمر ألّا نقطعَ شجرة، وفي أغلب البلاد التي تمدّد فيها الإسلام؛ ما تمّ ذلك إلّا بحُسن المعاملة والدّعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الممتحنة آية ٨).

ردّ عليه المسيحي قائلًا:

- ودينُنا عنوانه المحبة، ومن أبرز تعاليمه إذا لطمَك أحدُهم على خدّك فأدرْ له خدّك الآخر.

وقد ورد في العهد الجديد "لكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ. مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا، وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أَيْضًا. وَكُلُّ مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَخَذَ الَّذِي لَكَ فَلاَ تُطَالِبْهُ" (لوقا ٢٧:٦–٣٠).

تكلّم اليهودي قائلًا:

– وفي تعاليم التوراة الصّحيحة كانت الرحمة والتسامح من الأخلاق الرئيسية التي يجب أن نتربّى عليها، وقد جاء منها:

"لا تنتقم ممّا فعله الآخرون بك، ولا تذكر ابن شعبك بذلك، وأحبّ لغيرك كما تحبّ لنفسك" (تثنية الاشتراع ٣٢–٣٥)

تنهّد الفارس المسلم وقال:

– لو اتّبع كلّ شعبٍ منّا ما جاء في صحيح تعاليم دينه، ما سالت قطرةُ دم من إنسان كرّمه الله ونفخ فيه من روحه، ما سالت عدوانًا وظلمًا بمثل ما يغشى الأرض كلها الآن.

قال المسيحي:

– هذا صدقٌ وحقّ.

تساءل اليهودي:

– شكرًا على التّذكرة، ولكن لمَ هذه السّرية المطلقة طالما كان من الممكن تذكير الجميع بها على الملأ؟!

ردّ الفارس العربي قائلًا:

– تذكيرُ الجميع بها على الملأ لن يفيد، ولن يغيّر من الأمر شيئًا، بل يجب علينا الآن الإعداد لخطّة طويلة المدى قد تصل إلى مئاتِ الأعوام لتربية جيلٍ يؤمن بهذه المبادئ، ويكن فيها التّعاون جنبًا إلى جنب، يجب التّخطيط العميق الموحد لوصول مَن يؤمن بها إلى مواقع القيادة فيمكنُه صنعُ فارق بها.

– نعْمَ التّفكير، ولكن كيف سيتمّ ذلك؟

– أوّلًا سنطلق على هذه المنظمة اسم (اليد الواحدة) ونضع سويًّا مبادئها، وبعدها تتوسّع دائرة التفكير لدراسة السبل التي يجب السّير فيها لتحقيق الهدف بتدرّج وبطء، ولا نتعجل جني الثمرة مهْما طال بالشجرة الزمان.

– نوافقُ على ذلك.

***

قفزَ عامر منتفضًا وواقفًا، وقال بذهول:

– هل تعني أنّ أبا موسى الغساني هو مؤسّس منظمة (اليد الواحدة) السريّة؟!

ابتسمَ الرجل بهدوء وقال:

– لقد انتصفَ بنا الليل، ألنْ تنال قسطًا من الرّاحة، ونكمل غدًا؟

لوّح عامر بيديه وقال:

– لوْ طلبت منّي هذا قبل قليلٍ لما تردّدت في القبول به، ولكن لا يمكن التوقّف هنا أبدًا!

قهقَهَ الرجل، وقال بوقار:

– حسنًا، مَن ذاق ويلاتِ الحروب العرقية، وكان ظنّه بأن دينه وحده هو المستهدف، عندما جاء إلى أرضنا اللاتينية، ووجد أن وحشية الرجل الأوروبي هي التي شوّهت تعاليم دينه، ونزعت عنه شعار المحبة الرّئيسي له، وقنّن لنفسه أنّ ما يفعله إنما هي إرادة الرب، مَن رأى ذلك أيقنَ بأنّ الأمر يجب معالجته من الجذور، فدائرةُ الحروب لم ولن تنتهي، والغلبة فيها للأقوى حسب سننِ الحياة، لهذا جعل أساس تكوينِ هذه المنظمة أن ينشغل أصحابُ كلّ ديانة بدينهم، فنقاء وبقاء كلّ دينٍ لا يرتبط أبدًا بالقضاء على أصحاب الديانات الأخرى!

قال عامر بحيرة:

– ولكنّ منظمة كهذه عمرها مئات السّنين، لِمَ لَمْ تنجح في تحقيق هدفها رغم بقائها في الظلّ حتّى الآن؟

– ومَن قال بأن هذا لم يحدث؟

– كيف ذلك، أين هو ذلك النجاح؟

– النّجاح لا يشترط له أن يكون فوزًا ظاهريًّا بتمكّن كبير، ولكن قد يكونُ بتغيير مفاهيمَ وأسس بسيطة كانت راسخةً من قبل، فكل هذه جزيئات متناثرة؛ لمُّ شملها على المدى الطويل يصنع اللّوحةَ الباهرة التي سعى لها المؤسّسون؛ وهو التغيير على مستوى القاعدة وليس قمة الهرم،

سأذكر لك مثالًا ممّا يهمّك فقط، الحركات اليهودية الأمريكية المقاومة للصهيونية، وترى احتلال فلسطين إخلالًا بصريح تعاليم التّوراة، ورئيسة وزراء نيوزيلندة المسيحية التي ارتدت الحجاب وتعاملتْ مع مذبحة المسجد المشينة؛ بما يعجز عنه أيّ حاكم عربي!

وكذلك رغم حملات ترويج الإسلاموفوبيا المقنّنة؛ إلّا أنّ المدارس الإسلامية في إنجلترا تحصد المركزَ الأوّل في الجودة، وغيرها الكثير.

- الأمرُ عجيب، ولا قدرةَ لي على مناقشته الآن، فعندي كثير ممّا يناقضه، مثل وعدِ الله بحرب كبرى بين المسلمين واليهود.

- هل تذكرُ الآية التي ذكرها الفارس العربي في مستهلّ اجتماعه التّأسيسي؟ هذا ما نسعى إليه، مَن لم يعتدِ عليك، نبتغي الإحسان إليه، ومَن اعتدى عليك لك مطلقُ الحقّ في الردّ عليه بما يناسبه بلا مبالغة؛ حتمًا لن يقبلها أيّ دين سماوي.

مشوّهو الفكْر على جميع الجوانب يحملون رايةَ هذه الصراعات والاعتداءات، دورُنا هو إزاحتهم من مواقع اتّخاذ القرار، ووصول من يؤمنُ بفكرة انشغال كلّ أهل دين بدينهم وفقط.

تثاءب عامر وقال:

- الإرهاقُ والسّهر أفقداني التركيز بالفعل، ولا قدرة للردّ عليك الآن.

- حسنًا يا ولدي، وأنا كذلك قد نالَ منّي التعب، هيّا للنوم ولنكمل صباحًا.

***

في المطعم السّياحي الخاصّ بالفندق، وبجوار الحائط الزجاجي المقوّى، وناظرة إلى الخضرة الزاهرة الممتدّة على طول البصر أينما توجّه؛ جلست عبير ترتشف قهوتها باستمتاع بعد تناول إفطارها السريع، تبسّمت وهي تتخيل أمّها الآن ممسكة بطبق الفول المزود بكثير من الموادّ التي ترفع من متعة مذاقه إلى حدّه الأقصى، ومعه أقراص الطعمية ذات الرائحة الفوّاحة التي تعشقها، رغم الرفاهية التي هي فيها الآن بها لا يدعُ مجالًا للمقارنة أبدًا، لكنها اشتاقت لمذاق الخبز السّاخن الذي يدفئ قلبها، إحساس الشّبع بعد الجوع كان أكثر متعة من إفطارها عديد الأصناف المُباح لها اختيار ما تشاء منها؛ كما كان الحال منذ قليل!

همّت بارتشاف جديدٍ من قهوتها ووجهها يحمل بسمةً حالمة، ولكن كادت تتفلها حينما وجدت أمامها ماريانا بحاجبيها الجميلين معقودان وهي تنطق بجُملة صارمة تحمل الكثير من الغضب.

رغمَ معرفة عبير لكثيرٍ من العبارات الأسبانية بعد دروسها الكثيرة التي حضرتها، إلّا أنّها لم تفهم ما قالته ماريانا، فسألتها ببطء وكلمات متقطّعة عمّا تريد، لوّحت ماريانا بيدها وزفرت بقوّة وضغطت على أحرفها وهي تقول كلمتين فقط:

– أينَ عامر؟

بغضبٍ متصاعد وصرامة مماثلة، قالت لها عبير:

– ماذا تريدين منه؟

قالت ماريانا في نفادِ صبر:

- هوَ في خطرٍ كبير.

ارتبكت عبير، وقالت بخوف:

- كيف ذلك؟!

انطلقت ماريانا تتحدّث بسرعة بما لم تفهمه عبير، وتوقفت في وسط كلامِها عندما رأت أماراتِ الحيرة على وجه عبير، فأشارت بأصبعيها نحو أذنها وقالت:

- فليتّصل بي بسرعة.

وتركتها وانطلقت مسرعةً دون أن تنتظر منها ردًّا.

***

في الحديقة الخلفيّة للمنزل وعلى مائدة خشبية عتيقة ووسط أصوات الطّيور، ومع النّسمات الخفيفة وحفيف الأشجار، أنهى عامر تناول إفطاره بصحبة خزينة التاريخ السّري لمنظمة اليد الواحدة، وعندما همَّ أن يتحدّث، أشار الرجل بأصبعه أمام فمه مانعًا إيّاه من الكلام، واستكمل هو إفطاره ببطء، وبعد قليل كانوا بالداخل يحتسون الشاي والقهوة، وأخيرًا نطق عامر قائلًا:

- حسنًا، لقد طفت بي في عمق التاريخ لتشرح سبب وكيفية تأسيس منظمة اليد الواحدة، والتي كان نطقي لاسمها سببًا في رعب ومقتل جيفيد،

هذا هو الرّابط بيني وبينها، ولكن ما هو التكفير المناسب لهذا الذّنب الذي فعلته دون قصد؟ وما الهدف من كلّ شرحك المستفيض هذا؟

هزّ الرجل رأسه بأسى وقال:

- أنت لم تتسبّب في مقتله وفقط، لقد أحدثتَ ارتباكًا قويًّا وكبيرًا على جميع القطاعات.

ارتفعَ حاجبا عامر دهشة وقال:

- وكيف كان ذلك!؟

تنهّد الرجل بقوة، واسترخى في جلسته وقال:

- فكما كان الأجداد الأوروربيّون يرون أن بقاءهم مرتبط بمحو الآخر واستئصاله؛ فأحفادُهم في الولايات المتحدة مازالوا يحملون نفس النّهج، ولكنْ تطوّر إلى تقزيم الجميع حتّى يطول بقاءهم في القمة!

ستجد أصابعَ المخابرات الأمريكية (سي آي إيه) تعبث في كلّ ركن بالكرة الأرضية، فهي الراعي الرسمي لجميع الانقلابات على حركات التحرّر والاستقلال الوطني، وكان لها منهجٌ خاصّ معنا في أمريكا الجنوبية، في الحقبة السابقة كانت تسعى خلف العسكريين، وهدفها معهم إحدى اثنتين؛ إمّا عملاء مباشرون لتنفيذ سياساتها، أو منبهرون بمدى قوتها العسكرية الخيالية؛ فمنهزمون نفسيًّا يرون ألّا مواجهة معها ويجبُ تنفيذ جميع مطالبها لتجنّب صراع غير متكافئ، ولكن كان من الثّمار الكبرى لمنظمة اليد الواحدة

أن تحرّرت بالفعل الكثير من البلدان اللاتينية، وتحقّق لها النهضة السياسية والاقتصادية التي دفعت البقية لمحاولة أنْ تحذو حذوها، منها على سبيل المثال البرازيل؛ تلك البلد التي كان يموت فيها سنويًّا ما يقارب ستمائة وخمسون ألفًا من الجوع، فإذا بها تصبح سادسَ أقوى اقتصاد عالمي، وبعد أن كانت تستورد مسدّسات الصوت، قامت بتصنيع غوّاصة نووية تصنيعًا مشتركًا مع فرنسا، ومُخطّط أن تنتجها في عام ٢٠٢٢ إنتاجًا برازيليًّا خالصًا، وهنا أدركت المخابرات الأمريكية أنّ الخطر الحقيقي ليس في تلك الحكومات التي تتبدّل وتتغير ويمكن تغيير مناهجها فيما بعد، إنما في تلك المنظمة السرية التي نجحت في رصدها؛ (اليد الواحدة) فمنهجها يهدّد بتحطيم أهدافها الكبرى، ولهذا جعلت نصبَ أعينها محاولة كشف هيكلها التنظيمي، والإيقاع بها، إمّا بالاغتيال أو بالحصار أو أيّا كانت الوسائل التي يرونها مناسبة.

الاجتماع الحكومي الذي أخطأ جيفيد في اصطحابِك إليه لضيق وقته، كان به بعضُ العملاء للمخابرات الأمريكية، وتمّ تحذير جيفيد منهم، لهذا طلب منك عدم التفوّه بحرف، تمّ وضع شعار منظمة اليد الواحدة في الكرسي المقابل له؛ وذلك بعد التشكّك في انتمائه للمنظمة، وبكاميرات خاصّة كان يكفيهم فقط رصد ملامح وجهه لرؤية الشعار، وبعدها تقوم دراساتهم وتحليلاتهم حول ذلك ردّ الفعل، ولكنك فعلت ما فاقَ توقّعاتهم، لم يكنْ بمخيلة جيفيد أنّك على دراية بها، فإذا بك تهتف باسمها، لا ندري حتّى الآن سرّ تحرّك جيفيد بردّ فعل مبالغ فيه، ولكنْ غالبًا فعل ذلك لحمايتك، حركته العصبية أظهرت أقصى ما يحلمون به، وأنّه حتمًا عضو في هذه المنظمة،

فتمّت مطاردته ونسيانك، لو لم يفعلْ وتظاهر بجهله عمّا تتحدّث عنه، لتمّت مطاردتك أنت؛ وحتماً ما انتهت إلى خير؛ حتّى لو ثبتت براءتك.

رغماً عنه سالت دموع عامر وقال:

– لست أدري حتّى الآن كيف يمكنني التكفيرُ عن هذا الذنب.

ربّت الرّجل على كتفه وقال له بحنان:

– لا تقلق، ستفعل.

– ليس بيدي ما أقدّمه له.

– لديك الكثير، لقد علمت الآن كيف كان خطرُ جملتك على جيفيد، ولكنْ لم تعلم كيف تسبّبت في إرباك صفوفنا.

نظر عامر نحوه بتساؤل، فاستطرد الرجل قائلًا:

– جيفيد لم يكن عضوًا عاديًّا في المنظمة، فقد كان قائدها.

– طبيعيّ جدًّا مع قوته الاقتصادية الكبرى.

– طريقة اختيار القائد ليس هذا معيارها، إنّما أهمّ معيار فيها هو ترشيح القائد السّابق له، ثمّ التّصويت على هذا الاختيار.

– حسنًا، يمكنكم اختيار قائد جديد دون ارتباك، فحتماً منظّمة سرية وكبرى مثلكم ستكون مستعدّة لهذه المفاجأة، ولديكم الكوادر التي تستطيع سدّ الفراغ الذي خلفه.

ضحكَ الرجل، وهزّ رأسه وقال:

– هنا كانت نقطة الارتباك الكبرى؛ جيفيد رأي فيك بذرةً لرجل مستكملٍ للأركان التي تؤهّلك لزعامة المنظمة، وكان ينتوي تربيتك لهذا اليوم في المستقبل، وتمّ ترشيحك منه ترشيحًا رسميًّا، منذ شهر.

قفزَ عامر منتفضًا وقال:

– لااااا.. دعْك من خدع السينما الهوليودية هذه، أنا أصلًا لست عضوًا بالمنظمة.

– لو كنت عضوًا لتمّ التصويت وانتهى الأمر، الارتباك الحاصل أن جيفيد قام بترشيحك مع وعدٍ باكتسابٍ لعضو فريدٍ مستقبلًا، ومات قبل أن تصبح عضوًا بالفعل، فلم يعدْ بيدنا التصويت لأنّك لست منّا، وتوقّف كلّ شيء.

– دعْكم من هذه البيروقراطية.

– التزامُ المنظمة بحذافير القوانين الحاكمة لها منذ الآباء المؤسّسين؛ سرُّ قوتها.

– لهذا كانت تلك الدّعوة السرية لضمّي إلى المنظمة، شكرًا لا أنتوي هذا، تلك مشاكلكُم الشخصية، ابحثوا عن مخرج لها.

– رأيت منذ قليل دموعًا صادقة، تبحث عن تكفير مناسب!

ارتبك عامر وتردّد، وقال بخوف:

– نعم، ولكن ليس لهذه الدرجة، أنا غير مؤهّل إطلاقًا، حتّى لأن أصبح فتى إعداد القهوة بالمنظمة!

– ظهرتْ منك بوادرُ توحي بصدق ما قاله جيفيد بالفعل، يكفي شعورك الدّائم الصادق بالمسئولية.

ضحكَ عامر وقال:

– رأيت مسلسلًا هزليًّا بطله شخصية تسمّى (حزلقوم)، بصدفة عجيبة صارَ زعيمًا لمنظمة المافيا الروسية، وكان منتهى التشرذم للمنظمة على يديه، هل ترغبون في المثل معي؟

ضحكَ الرجل عاليًا لدرجة أفقدته وقارَه وقال:

– لا تقلق، الأمر ليس هزليًّا، لدينا ما يؤهّلك ولو بعد حين، أوّلًا للعضوية؛ ثمّ التّصويت على قيادتك بعدها، والذي قد لا يكون في صالحِك غالبًا، وحتى نصل إلى ذلك؛ سيظلّ مقعد القيادة شاغرًا، ويدير الأمر نائبُ الرئيس.

اعتدلَ عامر وقال:

– صدقًا أتمنّى مساعدتك، ولكن لا يمكنني.

اعتدلَ الرجل، وقال بمنتهى الجدّية:

– نحن واقعيّون وعمليّون جدًّا، لم يكن بمخيلتنا موافقتك، هذه الجلسة كانت فقط لكشف الحجبِ عن عينيك.

اتّسعت عينا عامر تساؤلًا وقال:

- حسنًا، ما المطلوب مني الآن؟

- لا شيء الآن سوى الاحتفاظ بما سمعته طيّ الكتمان الشديد، ولا تبحْ به حتّى لنفسك؛ وذلك حماية لك قبلَ كلّ شيء.

- سأحاول نسيانه تمامَ النسيان.

- رائع جدًّا، يمكنك الآن صلاة الظهر، والسيارة على وشك الوصول، عشْ حياتك كما اخترتها لنفسك، وخذْ كلّ خياراتك كما يتراءى لك، وفي الوقت المناسب ستكون الخطوة التالية.

- هل ستحزن إذا ذهبتُ للإبلاغ عنكم للانتهاء من هذا الهمّ بالنسبة لي؟

ضحكَ الرجل بقوّة مجدّدًا، وعندما هدأ سأله بجديّة وبعينين فاحصتين قائلًا:

- هل يُمكنك هذا بالفعل؟

تردّد عامر قليلًا وسرح ببصره، تراءى لناظريه مشهد الفارس العربي الذي انتوى إجراء بحثٍ كبير مطوّل عنه، يظنه (أبو موسي الغساني) رغمَ عدم تأكيد هذا الرجل لذلك، وإجابته إجابة صريحة عن سؤاله المتكرّر، بالطبع لا يمكنه خيانة الفارس، بغضّ النظر عن أنّه لا يدري مَن هؤلاء المتعاملين معه الآن!

فقال بجدية:

– بالطّبع لا، ما اسمك؟

تنهّد الرجل، وهزّ رأسه برضا، وقال مبتسمًا:

– هل سيمثّل لك فارقًا؟

– لا.

– حسنًا، دعْك منه وهيّا إلى صلاة الظهر، فقد أوشكت السيارة على الوصول.

***

باكيةً شبه منهارةٍ استقبلته عبير، وألقت بنفسها في أحضانه وهي تقول بحروف متشابكة مختلطةٍ بنهنهات البكاء:

– الحمدُ لله على سلامتك.

مندهشًا مازحًا سألها عامر قائلًا:

– لهذه الدّرجة لم تتحمّلي غيابي ليومين؟!

– لقد وعدتني بالعودة ظهرَ اليوم، ما الذي أخّرك لمنتصف الليل هكذا؟

ربّت عامر على ظهرها وقال بحنان:

– آسف لتغيّبي عليك.

نزعتْ نفسها، وقالت بخوف وغضبٍ ممتزجين في أحرفها:

– تلك العقربة ماريانا جاءتْ ولم أفهم منها سوى أنّك في خطر، خفت ألّا تعود إليّ، ولم أستطعِ الاتصال بك لتركك جوّالك هنا.

اتّسعت عينا عامر وقال بحذر:

– متى كان ذلك؟!

– صباح اليوم.

رغم إرهاقه إلّا أنّه انتزع جوّاله وقال لها:

– سأعود بعد نصف الساعة.

وضعتْ يديها في وسطها، وقالت في تساؤل غاضب:

– هل ستذهب إليها؟

– نعم. يجب أن أعلم ما ذلك الخطر الذي تحدّثت عنه.

بمنتهى التحدّي قالت:

– وعدتني أنّ طائرتنا ستطير بنا صباح الغد، أليس كذلك؟

تردّد عامر وقال:

- سنتحدّث في أمر السفر بعد عودتي، يجب عليّ الإسراع الآن.

تمسّكت عبير بكمّه وقالت:

- لا تجعلها تغويك بالبقاء.

تنهّد عامر بنفادِ صبر وقال:

- لا مجال لهذا الكلام يا عبير.

انصرفَ مسرعًا قلقًا، ولكن عبير كانت أكثر قلقًا، وقد تشمّمت من كلامه رائحةً جديدة لم ترضَ عنها.

***

استقلّ أوّل سيارة أجرة ظهرت أمام الفندق، وطلب من السائق الإسراع إلى قصر جيفيد، يمكنه الاتّصال بماريانا وسؤالها عبر الجوال، ولكن الأمور لم تعدْ بسيطة بالنسبة له كما كانت سابقًا؛ لذا يجب الحذر الزّائد، أخذ يتفكّر في الاحتمالات التي دفعت ماريانا للذهاب إلى الفندق لتحذيره، ولكن كيف علمت بأنه مازال في كولومبيا ولم يغادر بعد، وأنّه في هذا الفندق تحديدًا؟!

لقد كانت ماريانا- ومازالت- تلك الطفلة المدلّلة التي لا ترى من الدنيا إلّا اللّهو واللعب، وحصد ما تشاء من متع وفقط!

هل من الممكن لها أن تنغمسَ في هذه اللعبة العالمية القديمة والخطرة؟!

من المستحيل طبعًا، فقد كان جيفيد ينتوي إعداده هو لهذا الأمر، فحتمًا ماريانا لا تصلح لأي من هذا.

ولكن كيف يصبح جيفيد بدلاله المبالغ فيه لابنته وتركها بمثل هذا الانْحلال من وجهةِ نظر عامر، كيف يجتمع ذلك مع سعيه لتحقيق أهدافٍ استراتيجية كبرى مرتبطة بكلّ أطراف الديانات السماوية؟!

ربّما كانت الإجابة في قول ذلك الأستاذ الأكاديمي الذي التقى به حينما قال له: الهدف أن يعيش أصحاب كلّ دين بما يروق لهم بشرط عدم الاعتداء على الآخر أو الجور على حقوقه!

انتبه عامر بأنّ مسير السيارة قد طال عن الزّمن المفترض به للوصول إلى القصر، نظر إلى معالم الطريق فكانت غريبة تخالف ما اعتادت عليه عينه في ذهابه وإيابه سابقًا، ارتعد ومخيّلته مليئة بكلّ أركان نظرية المؤامرة، فقال بصوت خافت:

- هل أنا مُختطف؟

بكلّ بساطة ردّ عليه السائق قائلًا:

- نعم.

زادت ارتجافةُ عامر وقال:

- ماذا تريد؟

بنفس البساطة ردّ عليه السائق قائلًا:

- حديثٌ قصير، وبعدها تختار أنت مسيرَك بنفسك.

- مَن أنتم؟

- ستعلمُ بعد قليل.

وبعد قليل، كان عامر داخلَ منزل لا يدري أين موقعه، مكوّن من طابق واحدٍ بسقفه المنحدر على الجانبين، وأمامه لمبة واحدة متدلية بضوء شاحب وخافت، استقبله رجلٌ ببذلته الأنيقة جدًّا ممسكًا بسيجار ضخم، بادره قائلًا:

- أهلًا يا عامر.

بمنتهى الخوف كرّر سؤاله قائلًا:

- مَن أنتم؟

- المخابرات الأمريكية المركزية.

زاغت عينا عامر، وقال بتردّد:

- ماذا تريدون منّي؟

– أنت شابّ ذكي، نعلم بأنّك قد انغمست في شيء لا علاقة لك به، ولكنّك أسديت لنا خدمة كبرى، وسوف نكافؤك عليها.

– عمّ تتحدث! أنا مجرّد طالب في كلية التواصل الاجتماعي، مات كفيلي وطردتني ابنته.

– لا عليك، لن نغوصَ في حديثٍ لا طائل منه، المهم مكافأتك الآن هي تركك تستقلّ طائرتك غدًا برفقة زوجتك إلى بلدك، فلا تضيع هذه الفرصة.

– ولِمَ اعتقدت أنّي لن أفعل؟

تنهّد الرجل وقال:

– قلتُ لن نخوص في حديثٍ لا طائل منه، هل يمكنك الردّ أين كنت مختفٍ اليومين الماضييْن؟

بخوفٍ وتردّد قال:

– جورمان صحبني للمرور على بعض أفرع شركات جيفيد لرؤية إمكانية توظيفي في إحداها كفرصةٍ أخيرة قبيل اليأس وسفري.

ضحكَ الرجل بتهكّم وقال:

– لنْ يرضيك وسائل تأكّدنا من صحّة كلامك، ولكن ما يهمّنا الآن هو عودتك إلى بلدك، ونسيان تام بأنّ الخريطة تحوي بلدًا يسمّى كولومبيا.

بتساؤل حقيقي قال عامر:

- ولمَ ذلك؟

- هذه هي شئوننا الخاصّة، يمكنك القول بأننا لا نرغب في ترك ذيول خلفنا، ولولا أنّ التخلّص منك ممكن بالسّفر إلى بلدك، لكان بوسيلة أخرى أيضًا لن ترضيك.

- حسنًا، لم تكنْ بحاجة لكلّ هذا الاستعراض الغريب لأنّي كنت في طريقي إلى السفر بالفعل.

أشارَ الرجل بأصبعه محذّرًا وقال:

- حسنًا، ولكن فلتعلم بأنّ أعيننا لن تغادرك برهة، فمازلت موضع شكوك، أكرّر بأننا نرى ألّا جدوى في الخوض بشأنها الآن.

***

فوقَ المحيط الأطلسي، ولمدّة تقارب العشر ساعات متصلة، حلقت الطّائرة وبداخلها عامر الذي لم يكفّ عن التلفّت حوله كلّ خمس دقائق، وعبير التي انغمست في تشغيل بعض وسائل التّسلية على الشّاشة أمامها، وأخيرًا التفتت نحوه قائلة:

- هل تنتظرُ أحدًا؟

مرتبكًا ردّ قائلًا:

- لا.

- أشعر أنّك تبحث عن أحد ركّاب الطائرة، احذرْ أن تكون ماريانا.

مرغمًا ضحك وقال:

- تفضّلين عيشة البؤس وتضحّين بحلم كلّ إنسان في الثراء السريع لأجْل غيرتك منها؟!

بكلّ هدوء ابتسمت وقالت:

- أضحي بكلّ شيء لأجلك أنت.

شعرَ بالحبور لقولها، ونظر نحوها بحبّ وحنان قائلًا:

- زوجاتُ الصّحابة الكرام كنّ أشدّ حبًّا وارتباطًا بأزواجهنّ، وبالرغم من ذلك أغلب الصحابة الكرام ماتوا في أرضٍ ثانية بعيدًا عنهنّ في سبيل ما آمنوا به.

- هنّ الصّحابة والصحابيات، ولكن لم تكنْ هجرتهم لماريانا وأموالها!

ضحك بقوة حتّى دمعت عيناه وقال:

- يا لماريانا التي أصابتك بمَسّ.

تنهّدت وقالت بفراغ صبر:

- أسأل الله ألّا يكن لنا تعاملٌ مستقبليّ معها.

همّ أن يجيب عليها، ولكن شعرَ بيدٍ توضَع على كتفه، فارتعد ونظر إلى صاحبها، فإذا به رجلٌ آسيوي بادره بالقول قائلًا:

- أين الحمّام؟

أشارَ عامر نحو الأمام، ولم ينصتْ لحرف ممّا أخذت تتكلم به عبير وعيناه ملتصقتان بظهر الرجل الذي دخل الحمّام، وغاب فيه خمس دقائق، ثمّ عاد منه متباطئًا، وعندما عبَرَ بجواره ربّت على كتفه كأنّما يشكرُه على مساعدته، فتنهّد عامر بعمق، وأخيرًا ارتخي بقوّة في مقعده، وآن له أنْ تغمض عيناه في سبات عميق.

***

بعد سبعة أشهر..

خرجَ عامر من المسجد متباطئًا خلف أبيه، وهو يبسمل ويحوقل ويلهج لسانُه بكثير من الأذكار التي اعتادَ عليها، وأصبحت تخرج منه بشكل عفويّ تلقائي، سار بجوار أبيه كتفًا لكتف، وعندما انتهيا ممّا يرطب ألسنتهما عقب كلّ صلاة، سأل عامر والده قائلًا:

– عندما علمتَ بموت جيفيد سألتني سؤالًا عجيبًا أتمنّى معرفة سببه، حينما قلت هل تحدّث معي في أيّ أمر ديني أم لا!

ابتسمَ الأب بحنان وهدوء وقال:

– هل تظنّ أنّ موافقتي على سفرك إلى كولومبيا كان يسيرًا أو ممكنًا هكذا بكلّ بساطة؟ أنت هنا وسط أهلك وبني دينك، أبسط عباداتك بيننا تعدّ هناك جهادًا أكبرَ.

ضحك عامر قائلًا:

– إذًا لِمَ وافقت؟

– إجابة سؤالك في مشهدٍ غاب عنك، فليلةُ زفافك عندما تغيبت عن المجيء فوجئتُ برجل أجنبي ضخم وشارب كثّ كثيف استوقفني وطلبَ الانفراد بي، وبالداخل، ومن خلال مترجمٍ معه، دار حوار

شرح لي فيه مدى اهتمامه بك، وأنّك شخص فريد، مدحني لنجاحي في تنشئتك هكذا، وقال بأنّك تستحقّ أن تكون أفضل شخص في هذا العالم، ويمكنه منحُك ما تستحقّ من مكانة عالمية، وعرض أمامي بعضًا من إمكاناته تلك، ولكنّي رفضت وقلت بأنّ حياة بسيطة مطمئنة ترضي الله- عزّ وجلّ- أفضل من كلّ كنوز الدنيا؛ خاصّة إن شابها ما يسخط الله سبحانه، وإذا به يبتسم ويقول لي بأنّه مهتمّ جدًّا بالإسلام ويريد معرفةَ الكثير عنه من خلالك، وأنّ وجودك معه في المنزل لن يكون سببًا في تغييرك فقط، وإنّما في تغييره، وربما أسرته وكثير من العاملين في مجموعةِ شركاته الكبرى، كان الإغراءُ قويًّا، لربما كانت هداية كلّ هؤلاء على يدِك إلى الإسلام، وبالتالي لا يمكنني الاعتراض أمام سيل هذا الخير العظيم، فاشترطَ عليّ عدم معرفتك بما دار بيننا حتّى تسير الأمورُ بشكل تلقائي لا افتعالَ فيه، وقد كان، لهذا دهشت عندما أخبرتني بأنّه قد مات ولم يحدثْ شيء معه ولا أسرته ولا شركاته، وبالتّالي فقد انتهت مهمّتك هناك، ويجب أن تعود لي.

ابتسم عامر وهزّ رأسه إعجابًا بما فعله جيفيد، لقد نجح في تحقيق المستحيل بإقناع والده على تركِه له هكذا، ولو ذكر له الحقيقة وقتها؛ لأصبح ضربًا من الخيال المضيّ قدمًا واحدة في مشواره الذي بدأه!

صعدا سويًّا إلى شقتهما ليجدا رائحة الطعام الشّهي معبقة لكلّ أرجائها، تشمّم الأب تلك الرائحة بقوة وهتف قائلًا:

- الله عليك يا عبير، لقد نثرت عبيرًا قويًّا بالمنزل لا يمكن الاستغناء عنه.

خرجتْ عبير من الداخل وهي تمسح يدَها في مريلتها وابتسامتها تنير وجهها قائلة:

- والله كلماتك تُسعدني دومًا يا عمّي.

همّ عامر أن يسابق أباه في كلمات المدح لها، ولكنْ سمع أزيزًا من غرفته، جعل ملامحه تتغيّر، ويندفع مسرعًا نحوه، رفع الأب حاجبيه قائلًا:

- ما هذه المكالمة الهامّة التي تربكه هكذا؟

قالت عبير بتوجّس:

- فلتكنْ أيًّا كانت، المهمّ ألّا تكون من ماريانا.

ضحك الأب وقال مازحًا:

- كنت أفكّر في دعوتها للمجيء عندنا شهرًا، ردًّا لجميل أبيها.

عقدتْ حاجبيها بقوة وقالت:

- حتّى أنت يا عمّي!

ضحك بقوّة وقال:

– لقد تركها وكانتْ بين يديه، وهجر الدّنيا وما فيها لأجلك، ألا يكفيك كلّ هذا؟

قالت عبير بجدية:

– أخشي أن يندم يومًا وتغريه بالعودة لها؟

– دعي هذه الهواجس الشّيطانية عنك يا بنيتي.

همّت أن تجيب، ولكنْ قاطعهما خروج عامر مبتهجًا وهو يقول:

– أبي، لقد فزتُ بمنحة للدّراسات العليا في أسبانيا.

وبعدَ كثير من المناوشات، وبعد شهر كامل، كانت طائرة عامر تحلق فوق البحر المتوسط في رحلةٍ جديدة وبداية جديدة، وما زالت الجملة الوحيدة التي استقبلها في مكالمته ترنّ بأذنيه، فبصوت عميق قيل له:

– انتهت المرحلة الأولى بنجاح، يمكنك التحرّك الآن.

بدأتْ بحمد الله